

الكتاب العربي السعودي ٧

الدكتور عصام خوقير

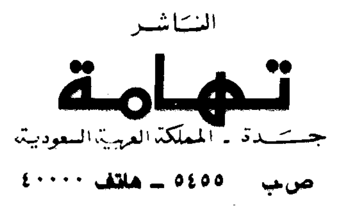
الطبعة الأولى

الكتاب العربي السعودي ٧

الدكتور عصام خوقير



الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م



الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ ـ هاتف ٤٠٠٠٠

الدوامة!..

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

لهذه القصة قصة ايضا ، بدأت بالسؤال التالي :

لماذا نتعلم ؟؟ وهل نحن نتعلم ونسعى للحصول على الدرجات العلمية للعلم نفسه ولفتح آفاق نورانية امام العقل البشري ، أم اننا نحصل على الدرجات العلمية لنقدمها من بعد لتصبح وسيلة للحصول على الوظيفة ، فتمسى الدرجات العلمية المكتسبة وريقات في أضابير مضمومة الى صورة أوراق اثبات الشخصية ، وشهادة حسن السير والسلوك وشهادة العمدة ، لتكون في مجموعها مسوغات التعيين ؟.

قلة ـ أمام محك الواقع والتجربة ـ هم الذين يطلبون العلم للعلم نفسه او العلم للحياة ، والسواد يملأون سواد قوائم الوظائف والوظيفة .

والسؤال ـ الذي بدأ القصة ـ كان مسببا عن خبر قرأته في صحفنا السيارة ، والخبر كان في صورة شكوى جماعية من الفتيات اللائي احسن بالنفس ظنا حين اصبحن من خريجات كلية (.......) ، والشكوى تقول أن الجهة المسؤولة لم يكن في لوائحها ما يسمح لمن يحمل مثل مؤهلاتهن ـ العلمية ـ بالانخراط في سلك الوظائف .

وترفع هذه المجموعة من الفتيات المتعلمات والخريجات المثقفات ، ترفع شكواها لولى الأمر كي ينظر في امرهن وأمر الأجيال المتعلمة القادمة ـ على مسارهن ـ ويناشدن ولى الأمر انقاذ مستقبلهن .

وهنا قام السؤال ، ماذا عساهن هؤلاء المتعلمات من الفتيات ، المثقفات الخريجات يتصورن مستقبلهن ؟؟ وما هو هذا المستقبل ؟؟

وتستطرد الشكوى معللة او مدعمة وجهة نظرهن قائلة «ولماذا اذا قضينا هذه السنين من السهر والمذاكرة والتعب ، هل كل ذلك ينتهي لتعليق الشهادة في برواز أنيق على الحائط ؟» وهنا بدأت ابحث عن جواب لهذا السؤال ، السؤال الذي طرحه الملأ من الفتيات المتعلمات الخريجات المثقفات والأمهات المستقبلات

وأعترف انني عجزت العجز كله عن الحصول على إجابة لهذا السؤال ، لماذا تتعلم الفتاة ؟؟ لماذا تفني زهرة العمر في السهر والمذاكرة والتحصيل ؟؟ هل كل ذلك ينتهي بإضافة الشهادة الى المجموعة الجمالية من الصور الفنية التي تملأ الصالونات ؟؟ عجزت عن الحصول على الاجابة بالصورة التي أملت السؤال !.

ولكن قامت القناعة عندي أن هذا النفر من الفتيات طلبن العلم لغير العلم ذاته ولكن اتخذنه وسيلة او مركبا يحملهن الى الوظيفة وبالتالي المرتب المنتظم ـ على غير حاجة ماسة او شبه ماسة له ، ولكن هذه الأشياء الجديدة اصبحت من جوهريات الديكور للشخصية النسائية الحديثه .

ولا ادعى في علم النفس معرفة ، غير انه من المؤكد سيجد الباحثون فيه جوابا ربما يقع تحت باب ما يسمى بالنرجسية ، او اثبات الذات ، او ... او .... بقية الفصول والابواب التي يضمها علم النفس ، ومرة اخرى اعترف انني لا أدعى فيه معرفة .

سيقول الملأ منهن ـ ومن ورائهن الملأ الآخر من الجنس الآخر - الذين أرادوا النجاة من الاتهام بالرجعية والعقلية المتأخرة ـ سيقولون عني أن هذا كاتب آخر يريد أن يرتفع صيته بخصام المرأة ، وانه عدو للمرأة .

وكما عجزت عن الحصول على جواب للأسئلة السابقة أعجز عن الرد على الملأ ، فكانت هذه القصة التي بين يدي القارىء هى حصاد العجز عن مواجهة الملأ

منهن ، وحصاد العجز عن الإجابة على سؤالهن ، وفوق كل ذلك ، عجز عن قراءة مستقبلية .

ولقد تغيرت الأسماء على هذه القصة قبل أن أختار لها « النوامة »، كان اسمها ـ في البدء ـ حصاد الريح ـ ثم تغير الاسم الى ـ المشتل المهجور ـ اذ كان في تصوري ـ ولا يزال ـ ان المرأة هي الفلاحة التي عهد اليها باستنبات البشر ، وذلك يكون في المشتل ـ والمشتل هو البيت الذي تكون فيه الأم حاضرة وفي حالة حضور دائم ، الحضور الشخصي ، والحضور النفسي ؛ كل انواع الحضور هذه لا تتوفر الا في مخلوق واحد فقط هو المرأة .. اى الحضور الانثوى ..

فاذا غابت المرأة عن المشتل ، فما عساه يكون مصير المشتل والمستنبت ؟؟ هذا السؤال أسلمني الى .. **الدوامة**

عصام خوقير
جدة





« الشخصيات »

الوالدة : أم مختار وعفاف .

عفـــاف : ابنة الوالدة وهي أم لكل من (عادل) و (ميرفت) .

محمـود : زوج عفاف .

مختـار : شقيق عفاف .

ليلى : زوجة مختار .

دكتور سامي: أشهر اخصائي الأمراض النفسية والعصبية .

الخالة فاطمة: شخصية فكاهية .. سيدة كبيرة في السن وإحدى صديقات الوالدة .

الحاجة أمينة: شخصية طيبة من أصل كريم ، أحوجها الدهر .. وجعلها الدكتور (سامي) المشرفة المطلعة بالمستشفى .



حصَاد الرّيح

ـ « يا ماما ، يعني عاجبك يا ماما اللي بيحصل دا ، الاولاد جابوا الأخلاق دي من فين ،؟؟ وليه ؟»

هكذا قالت شقيقتي تشكو لأمنا ابنها اليافع (عادل) ابن الثمانية عشر ربيعا ، وكان في لهجتها أسى واضح ورجع بكاء يمسك أن يتفجر ، ثم عاودتها نوبة الشكوى والصراخ وتوجهت لأمها ثم إليَّ باعتباري خال (عادل) قائلة .

-« ما هو دا غير معقول !! كأن ما فش علاقة أم وابنها كل ما أكلمه حاجة ، يراجعني وكل حاجة مناقشة وبالمنطق والمعقول يا ماما انتم كنتو تعملو كده مع جدي وجدتي ؟؟

ـ « احنا لا ، انما انتو ، ايوه ، ايوه ونص كمان ».

هكذا اجابت والدتي ، وانا مصغ كمن يشاهد عرضا لصراع الاجيال يتمثل في والدتي ، تستشيرها شقيقتي بشأن ابنها عادل ، وكنت كمن يشهد عرضا دراميا فذا .

ـ « يعني ايه يا ماما احنا لا ، انتو ايوه ؟؟ يعني ايه احنا كنا كده في شبابنا ، زي (عادل) واخته » .

-« واحدة واحدة يا بني ، ياواش ، يا واش على قول التركي ، احنا ، وجيلنا يا بنتي ما كنا نقدر نرفع عيننا في اخونا اللي اكبر منا ، ايش حال في امنا وابونا ، عمك (**مراد**) لحد الآن ، وانا صرت جده اهه برضـه اقـول له يا سيدي ، ليه ؟؟ لأنه اكبر مني ، شوفي (**مختار**) اخوكي قدامك أهه ، كيف بتناديله ، وهو اكبر منك بثلاثة بطون شوفي كده !! وخدي القياس من هنا » .

واعتدلت في جلستي ، او لعلي أخذت وضعا اكثر راحة ، تماما كمن شده الحوار والأداء على خشبة المسرح ، وربما خالجني شعور بالتصفيق تشجيعا للمؤلف ، بل لقد تمنيت ـ والأماني غوالي ـ لو تجسد هذا الحوار وهذا المشهد ويتسع المكان ليضم جميع الأفراد ، الأجيال الثلاثة التي تتعايش الآن في هذا المجتمع الذي يعيش مخاضه المكتوب

وشعرت كأنني اخذت انسلخ عن المشهد والعرض ، وخشيت الاسترسال في المتابعة ، فاعتدلت ـ مرة اخرى ـ في جلستي ، وأسندت وجهي الى قبضة يسراي واخذت اتابع العرض .

ـ « لكن يا ماما ، دي حاجة ثانية ، بس يعني ، انا و**مختار وشهرزاد** ..»

-« شفتى ، شفتى الفرق..؟ »

قاطعتها الوالدة ولم تدعها تكمل ، وقطعت على ، او بالأحرى حرمتني من معرفة ما كانت تهم بقوله شقيقتي عنى وعن الشقيقة الكبرى (**شهرزاد**)

ـ « شفتى الفرق ، خالتك (**خديجة**) الله يرحمها ، لحد يوم ما ماتت وهيا تقوللى يا ستيتا ، وانا ايه اكبر منها بحمل بطن واحدة بس ، وشوفي بتقولى على شهرزاد اختك وتجريها من اسمها كده مع انها اكبر منك بكم بطنـين ورضاعة . وياما ، وياما ، كنتو شايفين نفسكم يا بنتى ، انتم المتعلمين واحنا في عيونكم .. »

ومرة اخرى قامت بالقطع شقيقتي وقد اعترضت استرسال والدتي قائلة

ـ « بس يا ماما ، ايش مناسبة الكلام دا ، احنا عمرنا قلنا عليكم غير متعلمين »

ـ« هه !»

قالتها الوالدة وفيها نبرة أسى ، ونبرة تشفي وفيها رجع صدى احقـاب الزمن .

ـ « نهايته » قالتها الوالدة واشارت بيدها كأنها تنفض يدها من شيء علق بها « واحنا مالنا ، البركة فيكم ، انت موجودة ، وابوه موجود ، والولد ولدكم زى ما يعجبكم نشئوه ، لما اتكلمنا ، ونصحنا ضحكتومننا وقلتـم رجعيين ، وافكار متحجرة» ثم اعتدلت في جلستها وبدت وكأنها استعاضت بضع سنوات من شبابها للحظة واشارت بيدها في وجه (**عفاف**) صاحبة المشكلة ام (**عادل**) الافكار المحجرة دى ، والعقول الرجعية ، هى اللي ربتكم ـ بعد الله طبعا ـ وهى اللي نشأتكم وعلمتكم الحب والحنان والأُخوة . وان في البيت ، جوا البيت في حاجات ثانية غير الكتب وغير الفرش ، وغير الديكور والمطبخ الحديث والتلفزيون وغير دولاب الملابس ، دى كلها صحيح حاجات تتلمس باليد ، ونشوفها بالعين ، ولكن برضه جوا البيت حاجات كثير ، ما تشوفها العين ، لكن يحسها القلب » .

وشدنى الحوار اكثر شيء فقد اخذت الدراما التي اشهدها امامـى ابعـادا اخرى وبدأت تسبر أغواراً واعماقا ، كنت اجدنى اتدلى معها ، ووجدتنى ، في مسعاى للتركيز ، خلعت حذائي ورفعت رجليَّ المتدليتـين ووضـعتهما بحيث جلست عليهما فوق كرسي الفوتيل الباذخ ، واخذت وضع الاستعداد كمن يتهيأ ليشرب الحديث من فم قائله .

وحاك في نفسي ما جعلني انظر لأمى وكأننى اراها للمـرة الاولى . هذه السيدة الطيبة الأمية التي لم تنل حظا من التعليم والثقافة ولم تعايش التراث الحضارى ، هذه السيدة ذات الخمسين عاما من العمر ابنة احـد الاحياء

الشعبية **بمكة المكرمة** ، تتحدث هذا الحديث وكأنها فيلسوف او استاذ في علم الاجتماع ، وتتحدث عن موجودات البيت هذه الموجودات الغير المرئية ، أشياء تعايشها وتغلف حياتنا اليومية وتلامسها ثم تترك بصماتها على تصرفاتنا ، عجيب هذا الأمر ، هل كل امهات الجيل الأسبق بهذا الشكل وهذا النموذج ، هل كلهن فلاسفة الحقيقة ، هل كلهن يعرفن هذا الذي اتعرف عليه الآن فقط ولا اكذب لو قلت . انني اتعلم الآن منها وانا الذي اعلم الشباب في الجامعات واخاضرهم في المدرجات ، اى شيء هذا الذي علمهن واى حقائق هذه اللاتي يفجرنها امام انفسنا ، كيف حدث هذا ومن اين جئن بهذا العلم ؟

وكدت استطرد في التساؤلات لأقفز الى اللدنية والعلم اللدني ، وكدت افعل لولا حرصي على ـ الرى ـ من هذا الورد العذب الذي فجره صراع الاجيال فأعدت من وضع جلوسي وكأنني انهل من فمها العذب .

ـ« الحاجات دى يا بنتى يحتاجها البيت ، كل بيت ، زى المطبخ فيه موجود دولاب الابازير والبهارات ، ايوه ، لازم كل مطبخ يكون فيه دولاب البهارات والابازير علشان الأكل يتسبك ويصير له طعم وريحة ، الملوخية اما كان اتعمل لها الكشنة والتقلية ، ما يصير لها طعم ، الشربة ان ما تضاف لها الملح والشيبة والقرفة ما يصير لها طعم ولا تنشرب . الكزبرة ، ملح الليمون ، القرفة ، القرنفل ، الخولجان ، العصفر ، الحاجات دى وامثالها لا بد منها ، لازمة للمطبخ كل مطبخ لازم ما يخلو منها » .

ـ « ما هو كل دا موجود يا ماما في البيت ، بس ايه دخله في اللى بنتكلم عنه ، دا (**عادل**) ، واخته كمان بننقل منه »

ولا أخفى انني انزعجت كل الانزعاج حين قطعت (**عفاف**) حديث والدتي ، وليتها لم تقطعه ولعلها ـ في قمة ما ينازعها ـ لم تفهم ما قصدته

امى ، والتقطت الوالدة القفاز ، وضحكت من كل قلبها ضحكة ساخرة لم اشهد من قبل السخرية متجسدة كما شهدتها في ضحكة والدتي هذه

- « يا ريت تقدري تفهميني يا بنتي ، يا صاحبة السانس ، مادري البكلوريوس ، مادري ايش داهية اسمه ، انا باكلمك ولانتي فاهمة ، انا اللي ما أُفك الحرف فهمتها وفكيت أكتر من الحرف يا عفاف يا بنتى ، فكيت حروف الحياة ، انا باقرا لك من كتاب الحياة ، من كتاب الوجود ، من كتاب البقاء ، والبقاء لله يا بنتي .

- أنا قصدى اقولك ، زى ما الحاجات دى لازمة تكون موجودة في المطبخ علشان الأكل يصير لذيذ وطعم وله ريحة وطعم ونكهة ، كمان البيت له بهاراته الخاصة علشان الحياة يكون فيها لذة ، ويكون لها طعم ويكون لها ريحة زاكية ، البهارات دى هيا ، الحب ، والحنان والرعاية الحاجات دى هيا ديكور الحياة ، ديكور الأسرة ، ديكور البيوت . الصغار اذا نشأو وما شافو هذا الديكور ، ما راح يعرفوا ، يعرفوه كيف اذا ما كانو شافوه ، ولا داقوه ، ولا لمسوه .»

- « لكن يا ماما احنا ما قصرنا معاهم ، انا وابوهم ما قصرنا ، صحيح احنا مشغولين ، كل واحد في وظيفته ، لكن جبنا لهم مربية ، من صغرهم » .

ووجدت في داخلي دافعا يدفعني لأقفز فأُمسك بفم اختى فأغلقه حتى لا تتكلم وتقاطع .. « هه ، صحيح ما قصرتم ؟؟ أبوهم لا ما قصر ، انما انتى متأكدة انك ما قصرتي معاهم ؟؟؟»

- « يا ماما انا جبت لهم مربية دادة من صغرهم ودفعت راتبها من دخلي انا ، من مرتبي انا ».

وخرج صوت عفاف مشوبا بالبكاء فقد بدا صوتها متهدجا ، وخيل الى انى رأيت الدموع تحاول ان تنفجر داخل عينيها .

ـ « راتبك ؟؟؟ راتبك انت **الشخصي** ؟؟؟ هه» ولقد الفتُ هذه النبرة وهذه اللازمة من والدتي حين تقول (هه) ، انها علامـة (مقت) ، تقولها وكأنها تبصقها .

ـ « فاكرة يا عفاف يا بنتي من كم سنة ، لما قلت لك يا بنتى بلاش الوظيفة وارجعى لبيتك ، بيتك واولادك هم وظيفتك ، فاكراها وايامها كنتى في اجازة ولسه خارجة من المستشفى بعد الأسلاب ، فاكرة والا افكرك »؟؟

يومها قلتي لى ، يا ماما ، اسيب الوظيفة كيف ، دنا راتبي اصبح الفين ريال ، حرام اضيعهم ، انا جايبة مربية اطفال وباعطيها ربع راتبي ، فاكرة والا لا» ؟؟

ـ« صحيح يا ماما كل دا ، ثم ايش كان ناقصهم ، انا كنت ارجع من العمل تعبانة ، وبرضه ادخل المطبخ احضر الغدا و...

ـ « لأ ، استريحي » قاطعتها والدتي ، « تحضرى الغدا لك ولجوزك لكن الاولاد يكونو اتغدو ما يقدروا يستنوكم لحد الساعة اثنين ونص والا ثلاثة على ما توصلو من اشغالكم من الظهرية ».

ـ « طيب وايه يعنى ، الدادة اكلتهم وغيرت لهم وفي امان الله ثم يا ماما اللى اعملو انا ، تعملو الدادة »

ـ « صح وكمان اللى ما اخدتيه انتى اخدته الدادة ، انتى الان بتطلبي من اولادك حاجة ، انتى ما قدمتيها لهم لما كانوا في حاجتها ، اصبحو ما يعرفوها ، انتى بتطلبي منهم يعرفو قدرك ويحبوكي انتى زعلانه لأنك لما مرضتى الشهر اللى فات ، ما انشغلوا عليكى ، صحيح رقدتى في السرير عشرة ايام ، كنت انا ، وكانت اختك (**شهرزاد**) ساهرين نتناوب عليكي و(**مختار**) اخوكى يخرج

من شغله ، وقبل ما يروح يشوف اولاده ومراته كان يجى يشوفك ، انما (**عادل**) و (**ميرفت**) كده يطلو طله ويمشو ، من هنا يا عفاف تقدرى تعملى مقارنة » .

ـ « قصدك ايه يا ماما » ؟. وبدا عليها نوع من الاسترخاء وبدت كأنها تريد ان تتعلم

ـ « اقول لك يا عفاف يا بنتي ، الفرق بسيط ، شوفي انتى ومختار اخوكي ، وشهرزاد اختك ، شوفو تحبو بعض قد ايه ، شوفو بتعـزوا بعض قد ايه ، صحيح يمكن الحب ما يبان عادى ، لكن اى واحد فيكم يحصلوا حاجة تلاقي التانيين التمو حواليه وكل واحد يمكن يحاول يفرغ روحه من قلبه ويقدمها في خدمة التانى ، نفس الحكاية ، ربك ـ الله لا يعود السوء ـ لما رقدت الرقدة السودة في الفراش شهرين تركتو بيوتكم وازواجكم واتلميتوا حوالى »

ـ «ماهو دا واجبنا يا ماما » ، وطفرت من عينيها الدموع وهى تقبل والدتنا التي اشاحت بيدها مسترسلة.

ـ « لا يا عفاف يا حبيبتى ، انتم ما كنتم تأدوا واجبكم ، ولو كان كده كان عملتو زى (عادل) و (ميرفت) تجو تسلمو ، وكلمة سلامتك ولا باس ، وتمشو اهه دا اللى اسمه تأدية واجب ، لكن انتم كنتو بتجو وتجلسوا واللى جايبكم هو الحب ، الحب خلاكم تسيبو بيوتكم وتسهروا معايا هو دا اللى ناقص عندك في البيت ، (**ميرفت**) و (**عادل**) ما لقيو الحب لما كنتو صغار ونشاتوا في هذا البيت كنت وابوكم الله يرحمه جواليكم .. ابو كم يروح يشقى ويتعب علشان يصرف على البيت وانا زى النحلة دوارة في البيت اشوف شغل البيت واشوفكم ، يرجع ابوكم من الشغل نحن الاثنين نشترك سوا ونشوفكم ونشوف حاجاتكم ونلاعبكم ونشترك معاكم في اللعب ، الحاجات دى هى اللى بتسميها بهارات الحياة العائلية ، وانا زرعت الحب فيكم ، وجنيته لما احتجت ، شوفى إنتى

زرعت ايه ؟؟ ولا حاجة !! علشان كده بتحصدى ايه ؟؟؟ الريح !!

ـ « قصدك تقولى ان (ميرفت) و (عادل) ما عندهم عاطفة ولا حب يعنى ؟؟»

وضحكت أمي قائلة : «بالعكس ما فش في الدنيا انسان او حيوان ما يقدر يعيش بغير عاطفة ، بس لمين يا عفاف ؟! »

ـ « قصدك ايه يعنى لمين يا ماما ؟؟» وبدا على شقيقتى عفاف نوع من التبلد رثيت لها له.

ـ « قصدى يا بنتى ان (عادل) وميرفت ما رضعتيهم في بيتك الحب ولا زرعتيه في نفوسهم لك ، لأنهم ما كانوا يلاقوكى الا بمواعيد ، صدقينى ، ما وهلبت ما تلاقي (عادل) ينشغل باله مع دادته لو مرضت .

ـ « وهى فين يا ماما ؟؟ ما خلاص سابتنا من زمان ، العيال كبرو ، وهى نفسها كبرت في السن ، وجالسه ان جاكى ظنى في الرباط ».

وظننت وقد اخذ الحوار تبرد حدته اننى اكاد اشهد انـزال الستـار على المشهد ، ولكن القدر كان يخبىء (لعفاف) مفاجأة مصدقة لما قالتـه امنـا حفظها الله ، فقد دخل (عادل) بعد طرقات متتالية على الباب وصرير جرس الباب الخارجي يعلو في نفس الوقت ، ودخل (عادل) يافعا كله شباب ورواء ملء العين وملء النفس ، وأقبل على جدته يقبل رأسها ثم أشار برأسه يحيينا « اهلا ما ما اهلا يا خالى »، واتجه لجدته « يا جدة ، الله يخليكي ممكن خمسين ريال سلف محتاجها ضروري ».

ـ « خير يا (عادل) يا ولدى فيه احد يطلب سلف من جدته ، انت تطلب وبس » ومدت والدتي يدها الى داخل صدرها واخرجت ورقة مالية من فئة المائة ريال وقدمتها له مشترطة ان تعرف فيم يصرفها .

-«شكرا يا جدة ، يا أحسن جدة في الوجود»

قبل رأسها وهم بالخروج سريعا كما دخل سريعا ، ولكنها امسكت به قائلة : «تعال ، رايح فين بالمئة ريال».

وكانت المفاجأة

ـ معلهش يا جدة انا مستعجل ، اصل دادا مريضة ، رحت ازورها زى العادة ، لقيتها مريضة كثير وحالتها تعبانة ، اخذت تاكسى ورحت جبت لها الدكتور ، وفلوسي خلصت ، والدوا غالى ، علشان كده جئت استلف قيمة الدواء ، عن اذنكم اروح اعطيها الدوا واطمئن عليها وبعدين ارجع لكم »

وخرج عاصفا كما دخل ولم ينتظر ردا او تعليقا .

ـ « شفتى يا ماما » قالتها والدموع تنفجر من عينيها وتهدج صوتها واختنق بالبكاء

ـ « شفتى انت يا عفاف ، (عادل) ما هو من غير عاطفة ، انما عاطفة وحبه كلها راحت للى زرعها في نفسه وهو صغير ، الدادة ، هيا اللى زرعت ، أهى لما احتاجت ، حصدت ، انما انت زرعتى ايه زرعتى نفسك في الوظيفة علشان ايه ، الراتب وخايفه على الاربعة الاف ريال والا خمسة وخايفة زى ما بتقولى لا يروح عليكي التقاعد والمعاش ، **اولادك هم رصيدك ، هم التقاعد ، شبابهم وعافيتهم هم رصيد التقاعد اللى ما ينتهى ، بكره تسيبي الوظيفة وتخرجى على التقاعد ، يا فرحتك ، يا عفاف يا بنتى ، الدادة زرعت الحب ، تحصده وقت حاجتها ، وانتى زرعت الريح ، ويا خوفى لا تحصدى العاصفة** » .




الصَّدمَة



ـ « يعني ايه يا ماما يعني ايه يا مختار ؟ ».

وقفت عفاف صارخة وفي صوتها نبرة من يستنجد بطلب الانقاذ كغريق فقد **الأمل** في نجاته.

ـ « يعني ايه ، عادل خلاص ، راح منى » .

وتفجرت المأساة في عينيها ينابيع من الدموع واخذت عضلات وجهها ترتعد كأنها تشكو المخاض ، وفجأة انتهى كل شيء فقد صمتت واخذت تتهادى إلى الأرض ، ولو لم اقفز لأتلقاها بذراعى لارتطم رأسها **بالأرض** ووسدتها الأرض ، واخذت حبات العرق تتفصد على وجهها وجبينها كأنها تعلن عن أشياء رهيبة تجرى في الداخل ، ونضحت وجهها بشيء من الماء ثم اخذت اغسله بالكلونيا وهالنى ان جسدها فقد ليونته ونعومة ملمسه فأصبحت وكأنها تمثال من خشب مدهون وتحولت الوالدة من معلم فيلسوف ناصح الى قلب نابض بالحب واللوعة والخوف. وانكفأت على جسم (**عفاف**) تتحسسه وتقبله حتى لقد خيل إليَّ انها كانت تشرب العرق المتفصد من فرط لوعتها وكانت تنادي (عفاف) تارة ، تطلب منها أن ترد عليها ، وأخرى تنادي على اى

انسان يستطيع مساعدتها وصرخت في وجهى :

ـ « قوم روح هات قزازة النوشادر (يا مختار) ، يا سلمى ـ خادمتهـا ـ بسرعة يا بنتى ناوليني راس بصل ، البنت فاتِت في ايدينا » .

وانتهى الوجود كله من حول (أمى) وانحصر في (عفـاف) ، يا لقلـوب الامهات ! انه اطهر عضو في المرأة وتبدأ طهارته حينما تصبح اما ، اما قبل ذلك فهو عضو عضلي فقط يؤدي وظيفة حيوية اما اذا اصبحت أما فانه يصبح عضوا عاطفيا يؤدي وظيفة انسانية محضة .

وصرخت في وجهى : « يا مختار انت جالس جنبها كده زى العمل الردى ، قوم ، فز ، تحرك ، اعمل حاجة » .

وادركت ان لا جدوى من المناقشة فما عساني استطيع عمله الا أن استدعى طبيبا مختصا ، ولكن امر استدعاء الطبيب يحتاج لمساع لدى والدتي فان لها رأيا فيهم يجعل من الصعب اقناعها بضرورتهم وانهم أمر لا غنى عنه في مثل هذه الحالات ، ولعلى اعذرها ـ ويعذرها كل من عرف عقدتها ـ فقد فقدت زوجها ـ ابى ـ اثر حقنة بنسلين ـ وكان ذلك منذ اكثر من عشرين عاما ـ اثر ما يسميه العلم صدمة البنسلين او الحساسية ، ولكن اقناعها بهذه الحقيقة ، اسهل منه الحصول على سكن مريح بأجر مريح ، ولكن يجب عرض الأمر على الطبيب قبل ان تزداد الأُمور سوءا فرأيت ان اتدرج في ذلك .

ـ « طبيب يا امى يعمل ايه ، ما هو النوشادر وشممناها والبصلة في ايدك اهه وملبستها على خشمها .

ـ « بس برضه البنت لا بتضرب لا بيد ولا برجل ، يقطعني ، ويقطع عمرى يا بنتى ، يا واد اتحرك قوم شوف حل » .

وكانت هذه المرة الاولى منذ اكثر من جيل تناديني امى فيها بكلمة ـ يا واد ـ وادركت أن الأُمور استوت فرأيت أن اضرب والحديد ساخن .

ـ « حاضر يا امى بس اتحرك كيف وانت اهه عملتى كل اللى تقدرى عليه ، نوشادر ، شممناها ، ما فاقت ، وبصلة وانتِ أهه مدخله خشمها فيها ، يعني يخني اخشام ، وبرضه ما فاقت ما فيش الا الدكتور ، نشوف لها طبيب مختص .

واغلب ظني انها في دوامة الخوف على ابنتها الغت عدم استلطافها للأطباء حين وافقت وبدون تردد ، بل واستعجلتني .

ـ « طيب ومستنى ايه ؟ .. قوم اتحرك هاتو التليفون اطلب الدكتور ، والا اجرى بسرعة خذ سيارتك ولا ترجع لنا الا والدكتور في يدك ، لطفك يا لطيف » .

وهممت مسرعا للخروج حين فاجأتنى جارتنا الطيبة العجوز ، صديقة والدتي وجارتها السيدة (**فاطمة البنغالية**) بتدلى على صدرها بعد أن اسفرت ورفعت عباءتها ، المسبحه ،الحبل الذي في عنقها والذي تربط به مفتاح باب بيتها ومفتاح (**السحارة**) وارتفع طرف فستانها فوق الساقين ليظهر ـ السروال المخطط الذي يضيق عند الكعبين . وما ان دخلت حتى امتدت يدها الى علبة السعوط (النشوق) التي تدوام عليه وتزعم أن الدكتور (زينة الحكماء) وصفه لها وانه يشفى من ادواء عديدة وانه ، مركب من توليفه مخصوصة وهى سر من اسرار العطارة يحتفظ به ـ على صدق قولها ـ عمك سعيد العطار .

ودخلت منزعجة لسماعها صوت والدتي وهى تولول .

ـ« خير ،خير يا (**أسماء**) يا صديقتى » .

وما ان رأت (عفاف) بوجهها ملقاة على الارض كأنها قطعة من خشب حتى ارتفع صوتها«**اشتاتا اشتاتا** الله أمركم بهذا اشتاتا اشتات ، الله اكبر الله اكبر ، يا منجي من المهالك يا رب ، يا ملك الناس اله الناس ، ارفع الباس »

واخذت ترفع صوتها بالتهليل وذكر الله وتكبره ، ثم أرخت يدها في صدرها واخرجت المصحف الكريم ووضعته على صدر (عفاف) وقلبها « يا من بالقرآن ثبت نبيك ، بالقرآن اشفى عبدتك » وتذكرت ما جاء في الأثر عن الفاروق ـ أصح ما ورد ـ قوله : اللهم ايمانا كاءيمان العجائز ».

وخرجت مسرعا متوجها الى عيادة **الدكتور (سامي الغزي)** اشهر اخصائي الأمراض النفسية والعصبية ، وطوال المسافة وصوت الخالة (**الخاله فاطمة البنغالية**) ، الجارة العجوز يتردد في سمعى وفي بصرى ، وهى تردد الاستغاثة بالله ، وترفع الصوت تستعين بالله ، وتجسدت الرؤيا امامى ، وانا أراها تمد يدها الى صدرها لتخرج المصحف ، الكتاب الكريم من صدرها ـ وقد جاءت على غير سابق قصد ، فهى اذن **تحتفظ** بالكتاب الكريم في صدرها دائما ، وقفز خيالى يبحث بين طيات ملابس فتياتنا وسيداتنا ـ الجيل القائم فضلا عن الصاعد ما الذي **يحتفظن** في صدورهن . هل الومهن كدت ان لولا ان **سألتني** نفسي وهل احتفظ انا بالكتاب الكريم في مكان قريب الاداخل درج السيارة ـ كنوع من الحفظ ـ وفي الضالون كنوع من الديكور.

وأدركت الطبيب ساعة مغادرته داره ، وكانت تربطني به علاقات ووشائج ، **أوهنها** ان كلانا من **هيئة التدريس بالجامعة** ، ولعله ادرك مما ارتسم على صفحات وجهى من علامات القلق أن **الأمر** خطير . وتحول عن سيارته التي كان يوشك أن يأخذها ـ الى سيارتي وعدنا ننهب المسافة نهبا ، وأظنني تسلقت السلالم قفزا ان صح هذا التعبير وفتحت الباب للطبيب ، ومن الداخل كان صوت الخالة (فاطمة البنغالية) يرتفع ليطرد الشياطين والأرواح الشريرة التي تصورت انها تسلطت على (عفاف) ، وبين آونة واخرى تذهب الروع عن والدتي « **اذكرى الله في قلبك يا أسماء يا اختى ، هو العبد في إيده حاجه** »

وتقدم الطبيب ليفحص المريضة ، وكنت قد شرحت له كل ظروف وملابسات ما حدث ، وهي مسجاة بلا حراك ، كان لا بد ان يسألْ عما اذا قدم لها اى اسعافات اولية فذكرت له الوالدة انها حاولت ان تشممها النوشادر ، وانها وضعت ـ في محاولة لإنعاشها ـ بصلة حامية على خشمها .

ـ «لأ ، وانا كمان اعطيتها سعوط ، سعطتها وما في فايدة يا ولدي تاخذلك كده شمه من هذا السعوط ؟ ».

ومدت الخالة (فاطمة) يدها بعلبة النشوق الى الدكتور (سامي) الذي ربت على كفها شاكرا ومعتذرا ضاحكا . وفيما الطبيب يكمل فحص المريضة ، كانت الخالة (فاطمة) ترفع رأسها وترخيه كأنها في حالة ذكر وتكرر رفع يمناها الى رأسها وتعيدها الى صدرها مرددة كلمة شكرا ، وتذكرت ان الخالة (فاطمة) لها لازمه ، وهي أنها لن تكف حتى يعاد لها الشكر بنفس طريقتها اى بهز الرأس الى أعلى واسفل ورفع اليد الى الرأس ثم انزالها الى الصدر مع تكرار كلمة الشكر .

وتضايق الدكتور (سامي) بعض الشيء من ذلك ولكن افهمته أن هذه حالتها ولن تكف حتى يتابع معها شكرها بطريقتها . ولم يجد الدكتور (سامي) بدا من ان يترك مريضته لحظات ليقدم لها الشكر بطريقتها ، فرفع يمناه الى جبهته ثم أرخاها الى صدره مع هزة الرأس مرتين مرددا الشكر على النشوق ، وهنا فقط توقفت الخالة (فاطمة) عن ذلك وانصرفت لتجهيز كأس من العصير اكراما للطبيب ، وعاود الطبيب استكمال الفحص وانتهى الى التشخيص بأن (عفاف) تشكو من صدمة عاطفية عميقة او (جرح عاطفي نافذ) على حد تعبيره ، والأفضل نقلها الى المستشفى لتكون تحت رعاية وملاحظة مكثفة ولأول مرة تلغى أمي كل تحفظاتها تجاه المستشفيات والطب والأطباء وتعطى موافقة غير مشروطه .

ـ «بالله ، اتوكل على الله .. مستشفى مستشفى زى بعضه ، بس على الله تفوق » وظلت عيناها متعلقتين بشفتي الطبيب كأنها تنتظر منه ما يطمئنها او يخفف من لهفتها .

ـ « الامور بيد الله يا ستى وانا سبب من الأسباب اللى ربنا خلقها ، علشان يجري على إيدها الشفا لو قدر الله الشفاء ، والمسألة بسيطة خالص ان شاء الله ، هى زعلت شوية ، ودا أثر على اعصابها ، ولازمها راحة وشوية علاج يومين ثلاثة وترجع زى ما كانت »

ـ « من فمك لباب السما يا رب» . وهنا اقبلت الخالة (فاطمة) تحمل في يدها صينية بها اكواب من عصير الليمون .

ـ « اتفضل يا ولدى ، اتفضل يا دكتور اشرب ، انت زى ولدي (محجوب) اسم الله عليه عريس كده وغندور زيك ، اتفضل اشرب »

وتناول منها كوب الليمون ليشربه ثم يعيده شاكرا« هنيا يا دكتور ، بالشفا والعافية ، محل ما يسري يمري ، هيا يا ولدي » قالت ذلك وهى تهز رأسها كأنها توافق على كل كلمة تقولها .

وفي اقتضاب اعاد الدكتور لها التحية شاكرا ، غير ان الخالة فاطمة ظلت تردد مرة اخرى نفس النغمة ونفس الكلمات ونفس حركات راسها « هنيا يا ولدي ، بالشفا والعافية » واعاد الدكتور كلمات شكره ، ولكن الخالة لم تتوقف ، وتنبهت لما يحدث فأشرت للدكتور (سامي) أن لا بد أن يقلد حركات رأسها حين يشكرها ثم يرفع يده لرأسه وينزلها لصدره ، هذا اذا اراد لها ان تتوقف عن المتابعة ، وفعل كما اشرت عليه ، وهنا فقط توقفت عن اعمال الشكر ، واخذت تجمع اكواب العصير ، ثم التفتت فجأة الى الدكتور .

ـ « لكن قل لي يا دكتور ، ان شاء الله البنت طيبه ، ايش بها كفى الله

الشر طيبة ان شاء الله وفي قلب العافية» وظلت تكيل من التمنيات الطيبة وطمأنها الدكتور أن الحالة ليست سيئة وانها صدمة بسيطة .

ـ « وه ، صدمة ؟» هكذا قالت الخالة (فاطمة) وضربت ببطن كفها الأيمن على صدرها صدمة : بتقول صدمة يا دكتور ؟ اسم الله عليك وعلى تخاريفك ، صار ، مو أنا لوحدي بس اللى خرفت زى ما يقولوا صدمة ايه ، دى كانت جالسة عند امها ولا صدمتها سيارة ولا صدمها شيء متى حصلت تنصدم ؟.

وضحكت والدكتور سامي ملء أشداقنا وأخذ الطبيب يشرح لها ببساطة تناسبها معنى قصده ثم طمأنها انها ان شاء الله بخير حال .

ـ « ايوه يا ولدى ان شاء الله في قلب العافيه ، ان شاء الله طيبه .. واخذت تكرر ذلك تبعا ـ كعادتها ـ ، وهنا استنجد بي الدكتور (سامي) .

ـ « والمره دى كيف توقفها عن الاستمرار ، دى راح تجيب لى العصبي ».

وأفهمته أن كل ما عليه أن يفعله هو ان يجيبها الاجابة المطلوبة مع تقليد حركتها ، واخذ الدكتور (سامي) يهز رأسه مطمئنا انها في قلب العافية وانها سوف تطيب بعد ايام .

وقبل أن تفكر الخالة (فاطمة) في مفاجأة جديدة أخذ الطبيب حاجياته ومضى بعد أن وقع لى تحويلا على مستشفى خاص مؤهل لمثل هذه الحالات العاطفية على أن تتواجد هناك بعد ساعة على الأقل حيث يقوم هو بتدبير الأمر واشار الى ضرورة إشعار زوجها أو ولى امرها ، وقمت باصطحاب الطبيب الى سيارته وعدت لأحاول الاتصال بالاستاذ (**محمود عطا**) زوج عفاف وكان ذلك ضربا من المستحيل لعدم معرفة اوجه نشاطه مساء باستثناء انه ـ وشلته او جماعته ـ يقضون السهرة كل ليلة عند احدهم في لعب الورق والتعمق في متابعة برامج التلفزيون .

وقضت الوالدة الا تنتظر اكثر مما انتظرنا في البحث عن (**محمود**) وفي طريقنا الى المستشفى بسيارة الاسعاف التابعة للمستشفى - تركت الوالدة في صحبتها وعرجت انا الى منزل (عفاف) لأخذ بعض الغيارات ولأترك زوجتى عند (ميرفت وعادل) بالبيت فقد كنت أخبرتها بما حدث وأنى سأصحبها الى منزل عفاف ، وقد كان .

وكأنني أدخل دارهم لأول مرة ، وكأنني أتعرف الى معنى البيت المهجور ، فقد تجسدت الهجرة او الهجران امام ناظري ، فقد فتحت الباب لى (ميرفت) وما أن رأتنا حتى قفزت الى عنقي وصدري تضمني وتعانقني وفي نفس الوقت كانت تعبر عن حاجتها للصحبة الأسرية ، فقد كانت تلصق نفسها الى صدري بعنف كأنها تريد ان تلج الى الداخل هربا من الوحدة ، كيف لا ، وهى في فترة حرجة بالنسبة لسنها حيث هى في الثالثة عشر من عمرها وظلت ملتصقة بصدري حتى لكأنها وشم قائم ، وتدلت قليلا برأسها لتقبل (ليلى) زوجتى « كيف حالك يا خاله » قالتها ونبرة الظامىء الى الصحبة في رجع صوتها ، ولم تنتظر جوابا واعادت لصق خدها على خد (**ليلى**) زوجتى . وكان منظرا قل أن يحدث وقل أن يستطيع تصويره فنان . فقد كانت متعلقة برقبتي وجسمها ملتصق بصدري ، وجهها ملتصق بوجه (ليلى) ولو كان الواقع لوحة فنية لكان اسمها «الظمأ للحب» .

هذه الزهرة الصغيرة اليافعة محرومة من المحبة الأسرية ، محرومة من الحب أو هى ظامئة الى ذلك كله ، ولم تجد ما تعبّر به الى هذا الالتصاق الجسدي . ودارت بي الهواجس خشية المستقبل ، من المحتمل ان تسقط هذه الزهرة استجابة لسراب تحسبه منهلا ، أليس من المحتمل ان تكون ضحية سهلة ، وفريسة سهلة لأول يد تلوح ، ولعلى استطردت في مخاوفي ولعله اهتز جسدي لذلك حين قالت الصغيرة : ايه يا خالى ، سألت ليه وبتترعش كده ليه ؟.

وضممتها كما لم أضمها من قبل ، وتفجرت المأساة مرة اخرى في عيني دموعا ، فقد تجسدت في خيالى بناتى وصروف الليالى وسوء تصرفات الوالدين وما يمكن ان يجره ذلك على الصغار الابرياء وتساءلت من هو الجاني هنا ، من هو المجنى عليه هنا ؟، ولم استطع ان اجيب الصغيرة وتطلعت الى المنزل فان الجدران صامتة وموحشة انها ليست مثل جدران بيتى لحالى ولا مثل جدران البيت الذي نشأت فيه مع شقيقتي (شهرزاد وعفاف .وعاد صوت أمي يرن في أذني وهى تحدث (عفاف) .

ـ « لا ياعفاف يا بنتى لا فيه حاجات ثانية غير الاثاث وغير الديكور وغير الكتب والتلفزيون ، البيت لازمه حاجات ثانية غير دى ، دى كلها حاجات تشوفها العين وتلمسها اليد بس البيوت لازمها حاجات ثانية ، حاجات ما نلمسها باليد ولا نشوفها بالعين انما يلمسها القلب وتحسها النفس ، وتشوفها النفوس ، دى حاجات تلاقيها كده تناديكي وانت ماشية في وسط البيت توشوشك ، توشوش كل سكان البيت تقول لهم : أنا الحب .. أنا الوداد .. أنا المودة ، بينكم ، دى الحاجات اللى تعطى الحياة البيت والأسرة طعم وتجعل لها ريحه وزخمه ، زى بهارات الأكل .

ومددت يدى ـ لاشعوريا ـ والصغيرة ملتصقة بصدري ، اتلمس جدار البيت وأضع اذني لعلى اسمع شيئا ، ولم اجد الا رائحة الوحشة رائحة الهجران العاطفي .

وسألتها عن عادل، ودلفنا الى حيث كانا جالسين ، فاذا هو على مكتبه يذاكر ، وتطلع الينا بعينين يلمع فيهما الشباب والحياة والذكاء .. كل ذلك مغلفا بغلاف شفاف من الحزن وكدت أبكى بصوت عال لماذا يعاني هذا الشباب وهو في هذه الفترة التي هى ربيع العمر؟ لماذا يعاني كل هذا الأسى وكل هذا

الحزن .. من الذي أحال ربيعهم الى خريف . هل كتب الشقاء على هذا الشباب بخط أيدى اوليائهم،امهاتهم وآبائهم يخطون كتاب الشقاء على فلذات اكبادهم مقابل تحقيق رغبة او تصديق دعوة تقول بفتح المغاليق امام النصف الآخر من المجتمع ليشارك في عمليات البناء ؟ هل هى دعوة صادقة ، هل كانت امى وامهات الجيل السابق هل كن عاطلات ، هل لم يشاركن في البناء ، كيف اذن اصبحنا ـ نحن رجال هذا الجيل ـ كيف اصبحنا نحمل مسؤولية الحياة،ألسنا نحن ثمار عمل امهاتنا ، ألم تكن الأم منهن تصحو مع الفجر تماما كما تعمل الفلاحة في ارضها تنبت الزرع ؟ كذلك كانت امهاتنا يستنبتن الانسان الذي هو هذا الجيل من الرجال والجيل السابق والجيل الأسبق هؤلاء الأمهات اللاتي استنبتن تلك الاجيال ، هل كن عاطلات ومعطلات قدراتهن ؟.

وقفزت امام ناظري تلك المناظر والمخازي لشباب العالم الغربي في اوربا طولا وعرضا ، والعلاقات غير الأخلاقية التي يعيشها ، والضياع الذي يعيشونه ، كل ذلك رأيته من قبل،وتجسدت المناظر امام عيني الآن ، وهل ذلك كله ما كان الانتاجا لخروج الأم عن بيتها وتركها فلاحة الانسانية ، هل البيت الا المشتل الذي تشتل فيه البشرية ؟.

وعدت أجيل النظر في عادل وفي النفس اكثر من سؤال هل مقدر على هذا الفتى ان يكون نسخة من اولئك ، هل عادل هو أول الغيث ، هو القطرة الاولى هو وأترابه ؟

وتداعت الأفكار والمخاوف فأمسكت برأسي كمن يخشى عليه ان ينفجر . ونهض (عادل) ليصافحني ثم اخذ يضمني ، وادركت ان الأمور لم تفلت أزمتها بعد ، وان الخامة الصالحة لم تجد تربيتها الصالحة فقط ولم تتحول الى خامة فقدت خواصها .

وطلبت اليهما ـ وقد ربت على ظهر (ميرفت) لتنزل من على صدري ـ ان يحضرا لنفسيهما غيارين كاملين او ثلاثة لأنهما سيقضيان معنا ـ في بيتى بضعة ايام .

ـ « هييه». بفرحة غامرة صرخت (ميرفت) موافقة ومصفقة ، وأخذت اخاها من يديه تقبله .«من غير ما يعرف بابا ، وماما » قالها (عادل) وكأنه يطلب منى ان أسارع لآخذ موافقتهما فقد كانا يبحثان عن التغيير اى تغيير في لون وطعم ورائحة حياتهما .

ـ « بابا رايحين نترك له خبر هنا و (ماما) رايحة تغيب كم يوم لأنهـا في المستشفى ورايحة تمضي اربع ايام » وحاولت شرح الأمر اكثـر لولا صوت (ميرفت) : « يا حبيبتي يا ماما يعنى مش كفاية ما نشوفها طول اليوم الا في العصر كمان في الليل مش راح نشوفها »!

ـ « يا الله لازم آخذه اوفر تايم » قالها (عادل) بسخرية مريرة . ورأيت ان اضرب مرة اخرى والحديد ساخن حين فاجأته : مامتك دخلت المستشفى بسببك انت يا عادل ، والدتك مغمى عليها نقلناها المستشفى بأمر الطبيب بسببك انت لوحدك ».

ومن المؤكد اننى كنت اكذب في ذلك ، اذ الواقع انها دخلت المستشفى لأنها شعرت انها فقدت عادل كابن وذلك كان حصاد تصرفها واصرارها على ان تكون مساوية للرجل وموظفة ذات دخل خاص لتشعر باستقلالها الاقتصادي عن الرجل ، وفي سبيل ذلك فقدت عاصمة مملكتها .

ـ « ليه ، ليه انا السبب ، عملت ايه انا علشان اكون انا السبب »؟ وكان في صوته صدمة البرىء .

ـ تعالوبنا بالله حضروا لوازمكم وكتب الدراسة ، كم يوم وبعدين بعد ما توصل البيت وتستريح أقول لك يا عادل ليه انت السبب ، يا لله مشينا .

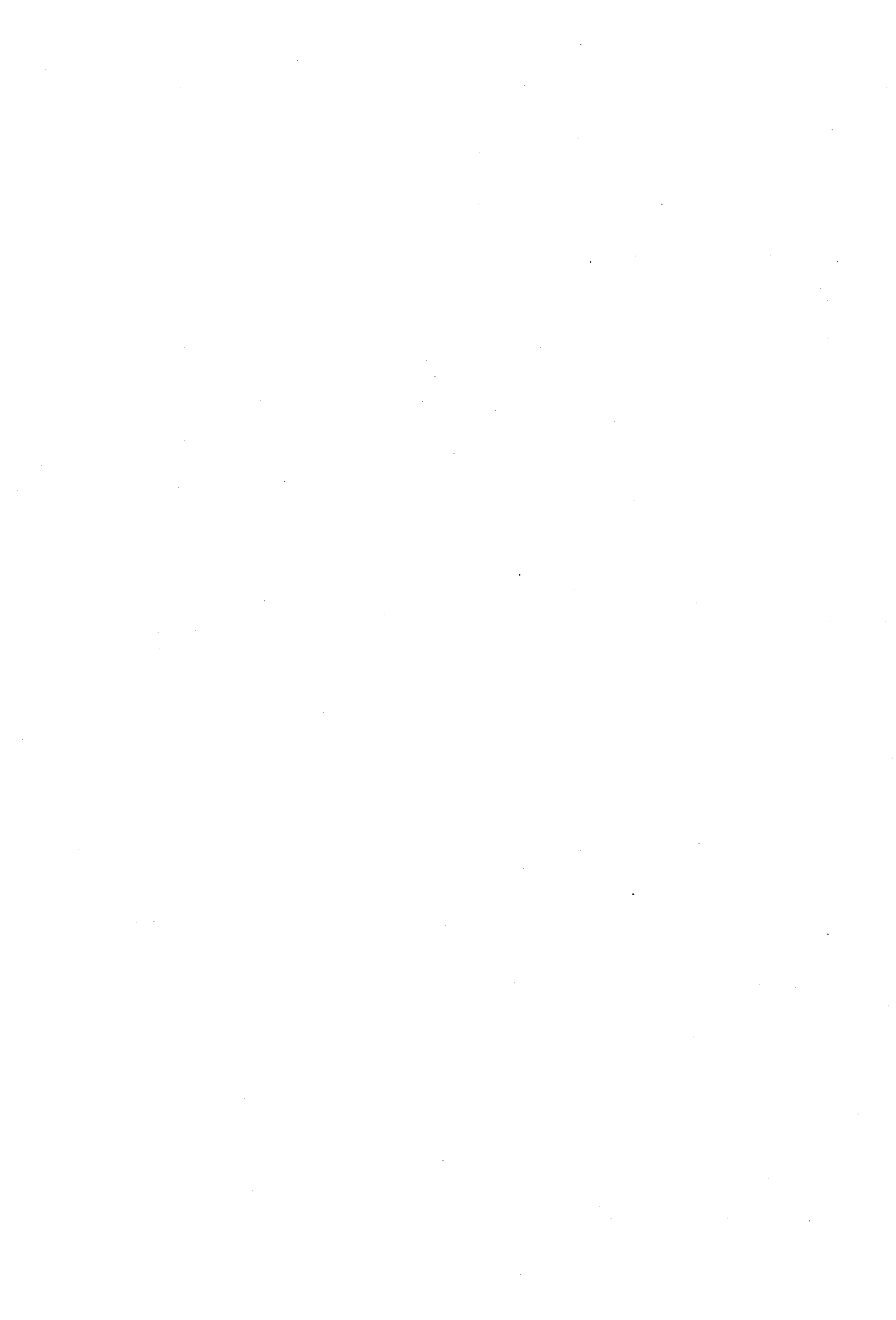
ـ لكن يا خالى أول مرة نروح المستشفى نشوف ماما .

قالتها ميرفت وكأنها تستجدي . وكان منطقيا ان تفعل ذلك ، واخـذت (ليلى) تساعدها ، وفي المستشفى كانت عفاف نائمة او هكذا خيل الى لأطرد عن خاطري رؤيتها وهى متشنجة كأنها قطعة من خشب املس ، او جثمان مسجي . واندفعت (ميرفت) لتلقى بنفسها على امها ، ولكن حال دون ذلك الحائط الزجاجي الذي يحتجزها داخل غرفة الحجز ، ونحن جميعا خارج الغرفة فقد كانت تلك اوامر الطبيب ـ لا ازعاج مطلقا وهدوء تام .

وبعد أن طمأننا الدكتور (سامي) طلب منا جميعا المغادرة ولم يسمح حتى لوالدتي بالبقاء بجانبها مؤكدا لها ان ممرضة خاصة موضوعة في خدمتها ، وان لا بد ان تقضي الليلة في هدوء تام ولا خطورة في الأمر ، وغدا يمكن السماح بزيارتها .

وفي انتظار الغد غادرنا المستشفى ، وصممت والدتي على الذهاب معنا الى البيت لنناقش الأمور في سرية ، ونفصل الأمر (لعادل) واخته ، وكانت بحق ليلة طويلة .

ليلة طويلة



على غير العادة في مثل هذا الفصل من السنة ، وعلى غير العادة بالنسبة للمدينة ذاتها ، كانت الليلة عاصفة فقد كانت الريح تزمجر في الخـارج ، وزوبعة رملية تغلف المدينة ، وخلت الشوارع من المارة ، حتى « العسة» خفير الليل ، توارى وحشر نفسه في مدخل الفيلا المواجهة ليتقي ما لم يكن في الحسبان ، ونظرت (ميرفت) الى حاله ثم توجهت بالحديث الى :

ـ يا حرام يا خالي ، العسة حالته كرب ومش لاقي مكان يداري فيه من العاصفة ، خليه يدخل عند غرفة الحارس يا خالي ، مسكين .

وبجانب انه عمل انساني واجب انفاذه ، رأيت أن افعل ، اكبارا لهـا وتنمية لهذه الأُحاسيس الانسانية فيها ، وهبطت الى الدور الأرضي وطلبت من حارس الدار أن يستضيف الرجل ، وعادت بعد أن اطمأننت ، واطمأنـت (ميرفت) الى ان الدار قد احتوته .

وفجأة أرعدت السماء وأبرقت ، **وانهمل** المطر غزيرا ، وكأنما هى ارادة عُليا فرضت حظر التجول هذه الليلة في وقت مبكر ، فلم تكن الساعـة بلغـت

العاشرة مساء ، وبالتالي فلم يعد في إمكان والدتي ان تدفعها أحاسيس الأم ، وقد كنت أخشى ذلك ـ ان يتزايد قلقها فتطلب الذهاب الى المستشفى .

وكنا في وجوم مفروض علينا ، كلنا يتحاشى الحديث عن حالة (عفاف) وينتظر من غيره بدء الحديث ، ورأيت أن أكسر الجمود ، وأحطم الصمت المطبق الذي اخذ يضغط على أعصابنا وكأننا نتوقع الأسوأ ، وبدأت اتحدث عن العاصفة والمطر ورحمة الله ودلالة ذلك ، ولكن (ليلى) دعتنا الى العشاء ، ثم توجهت(لميرفت وعادل) قائلة :

ـ غرفتكم جاهزة ، بعد العشاء اتفضلوا غيروا ملابسكم واتهيأوا للنوم علشان المدارس الصبح .

ـ ومتى نروح نشوف ماما ؟

بكل مشاعر الشوق والحنين قالتها (ميرفت) وخيل الى صوتها كان رجع صدى لغريزة البنوة ، منذ كان هناك أمومة وبنوة على وجه الأرض .

ـ بكرة يا روحي .

قالتها (ليلى) وكانت هى المؤهلة للرد ، فهى أم ، وهي انثى تفهم مشاعر البنات ، وشعرت كأنني لم أكن في حاجة الى (ليلى) كما أنا في حاجة اليها الآن ، فقد رفعت وحملت عنى مصاعب ومهام الحديث العاطفي للأبناء ، اظن انني لا أجيد هذا النوع من الحوار ، فلست مؤهلا غريزيا لذلك ، وأظن هذا بعض اسرار ضرورة ان تكون هناك انثى على وجه الأرض .. واستطردت ليلى :

ـ بكرة بعد ما ترجعوا من المدارس ، في العصر تروحوا نزور ماما .

- لا ، لا يا طانط .

وقفزت ميرفت الى جوارى كأنما تستعينني لأناصر وجهة نظرها .

-لا يا خالي ، انا ما أبغي مدرسة ولا بدي اتعلم ومستعد أكون جاهلة وغير متعلمة ، بس لازم أكون مع (ماما) واشوفها وأجلس معاها وأمسك يدهـا ، والعب في شعرها .

وتفجرت الدموع في عيني لفرط حساسية المشهد ، وصدق التعبير في لهجة (ميرفت) وشدة الظمأ العاطفي الذي تعانيه ، وأخذت اجفف دموعى ، ولم تستطع امي مغالبة مشاعرها فانخرطت في بكاء ونشيج . ومرة اخرى شعرت ان حاجتى الى زوجتى (ليلى) هي ضرورة حيوية وان وجود (ام) مثل ليلى لازمة من لوازم الوجود ، فقد ثبتت رغم حساسية الموقف وأخذت (ميرفـت) الى صدرها قائلة :

ـ تسلمي يا ميرفت يا حبيبة امها ، بكرة الصبح ، بلا شي المدرسـة ونروح كلنا نزور ماما .

وكأنها لاعبة سيرك حاذقة وجدت (ميرفت) فقفزت الى صدر (ليلى) ودفنت وجهها في عنقها تقبلها وتتنفس او تشم صدرها وعنقها ، وادارت (ليلى) نفسها لتخفي وجهها عنا ، وأدركت انها انما كانت تخفي دموعا طفرت من عينيها ، وكنت مخطئا في تقديري ولكنها فعلت ذلك لتعطي الفرصة (لميرفت) كما ترضع الحنان والحب،وكما تخفي كل أُم صدرها عندما ترضع وليدها كذلك ، وبفعل غريزي ارادت (ليلى) أن تخفي عملية رضاعة الحب ، والحنان والود ، والرحمة. ولعل الموقف استمر دقائق معدودة كلاهما ملتصق بالآخر،(ليلى) تلف ذراعيها حول الجسد الصغير المتعلق بالجسم اللدن الأغض،و (ميرفت) تلف ذراعيها الصغيرتين حول رأس وظهر (ليلى)، أمّا وجهها فكان ينهل ما يفتقـده من القرب من جسد الأم .

ومرة اخرى لو كنت رساما ، لرسمت للموقف لوحة ولأسميتها (الرضاعة

الثانية).ومضت دقائق ثم استرخت ذراعا (ميرفت) ورفعت رأسها لتقبل رأس (ليلى) وخديها وكأنها تشكره لوجبة الرضاعة الحسية التي اخذتها ثم انزلقت لتقف على الأرض ، واذا وجهها صورة مجسدة للراحة النفسية والروحية .

كل ذلك كان يجري ، و (عادل) قابع في جلسته ، وكأن لا شيء يجري حوله ، اما عيناه فتنظران الى شيء غير منظور امام بصره لعله يراه ولا نراه ، ولعلها اصابتني عدواه ولكني كنت انظر الى (ليلى) وكأني أراها لأول مرة ، فلم اكن أراها زوجة ، ولم أكن أراها انثى ، ولم اكن أراهـا لأول مرة أم اولادي ، بل ولم أكن أراها مخلوقا بشريا من مادة ، وانما كنت أراها ينبوعا متفجرا يموج بكل المقدس من العواطف التـي هي لازمـة للانسـان ، ولـو استطردت في التعمق في رؤياي الجديدة هذه لقفزت أنهل كما نهلت (ميرفت) ولكنها ـ سامحها الله ـ دعتنا لتناول العشاء فقطعت عليّ ما كنت أستمتع به من رؤية جديدة لها ـ وما اكثر ما كانت تقطع على ما أستمتع به ـ ولكن كان ذلك منها إنفاذا لتصرف لست أدري ماذا عساه أن تكون نتائجه لو انني استرسلت مع مشاعري .

سبحان الله ، كأنه كان لا بد من أزمة عنيفة كالتـي هي قائمـة الآن لتنكشف لي هذه الجوانب المضيئة وهذه المناهل العذبة في (ليلاى) ، وضحكت للقول السائد (**الشدائد محك الرجال**) وأردت ان أُخرج على الناس بمثل ـ أو قول سائد ـ جديد (**العواطف محك النساء**) ..

وتوجهنا الى المائدة وأدارت (ليلى) ظهرها الى عكس الاتجاه ـ فقد كنا نسينا عادل،واتجهت هي اليه وقد مدت يمناها كأنما لتشده من الأعماق التي اتغمر فيها ، وكأنه منوم مغناطيسيا ، هبّ واقفا واتجه معها الى المائدة وأخذ مكانه ، ولكنه طوال الوقت الذي مضى لم يكن ينبث ببنت شفة او حتى أُصدر صوتا الا آهات متقطعة على فترات .

وعلى المائدة ظل صامتا وكأنه تمثال من الشمع ، وعلى المائدة كنا ـ ليلى وأنا ـ نتحدث بعيوننا فقط كأنما تحاول ان تشرح لي الموقف .

وكأي زوج ـ شرقي فيما أعلم ـ فشلت في فهم الشرح والموشح الذي تمارسه الزوجة وفي لحظات فوجئنا بنشيج وأنين مكتوم كأنه يصدر من وراء جدار سميك ، وتطلعت الأعين واذا (أمي) قد نهضت لتمسح حبات من عرق تفصدت فوق وجه (عادل) .

-« ايه يا (عادل) يا حبيبي «إشبك» الأكل مش مناسب تحب نسويلك أكل غيره ؟ تشتهي حاجة يا بابا». ولكن عادل فجأة دفع يد جدته وانخرط في نوبة بكاء ونشيج مر :

-«ما أبغي حاجة ما أشتهي حاجة ، أشتهي أموت .. أشتهي تقوم القيامة ، اشتهي ينتهي كل شيء في الوجود » ..

وأخذ يضرب بيده فوق المائدة حينا وفوق جبهته حينا .

وتوتر الجو عنيفا فوق المائدة ، ونظرت (ليلى) إليَّ عبر المائدة ، وشعرت كأنني تلقيت منها رسالة صامتة وعجبت . كنت اظن أن ما يطلقون عليه لغة العيون او حديث العيون انما هو حديث خرافة ابتدعه العاشقون والعاشقات ، اى لغة الهوى وأهل الهوى ، ولكن الواقعة هذه أكدت لي غير ذلك فقد تلقيت فعلا ـ عبر المائدة ـ ومن عيني (ليلى) رسالة واضحة تقول لي : (هذا دورك الآن) ان (عادل) رجل او يوشك ان يكون ، فهو الآن يحتاج لك لامتصاص رد الفعل .

كانت الرسالة واضحة تماما ، وأوضح منها كانت الرؤيا عندي ، فلقد رأيت عيني (ليلى) حلوة حلاوة لم أرها من قبل ، بمثل هذه الحلاوة ولم أتمالك احاسيسي ، ولعلي انتهزت فرصة هذا التوتر المفاجيء فوق المائدة وشغل أمي (وعادل) و (ميرفت) فبعثت ـ عبر المائدة ـ قبلة حارة بشفتي الى زوجتي

(ليلى) ولا أذكر انني فعلت ذلك من قبل ـ ربما طوال فترة زواجنا ولعل هذا كان سبب الدهشة والانبهار المشوب بالسعادة كما بدا ذلك على وجهها .

ونهضت من على المائدة وأمسكت بطبقين من الطعام واحد لي والآخر لعادل لأذهب إلى الفراندة الخارجية ، ولقد رأيت أن لعل من المناسب ان اصحبه بعيدا عن جو المائدة والانفرادية في الفراندة وقد اصبح الجو رطبا بعد هطول المطر ، ولعل في هذا الجو المفتوح يستطيع (عادل) ان يفتح قلبه او افتح انا نفسه للكلام والحديث . وفي طريقي الى الفراندة مررت بجوار (ليلى) متعمدا ودنوت منها وهمست لها من خلف رقبتها بكلمات فيها حب .

وكانت مفاجأة سارة لها بلا شك فقد بدت صفحة وجهها وقد ظهرت عليها النشوة الحالمة والسعادة الغامرة ، وضربت بكفها على خدها ونظرت اليَّ نظرة تصف بها برسالة اخرى واضحة تقول فيها «هوَّدا وقته وايه اللي خلاك تقول كده » . واتجهت الى الفراندة الخارجية ، ووضعت عليها الأطباق ثم عدت لأستكمل ما يلزمنا من أُدوات المائدة وبقية الطعام ، ولعلي اقتربت بجوار (ليلى) ، ولكنها أشارت الى بيدها كمن يتوعد ، وعلى شفتيها همس حديث تعلقت كلماته بالشفتين واشرقت معانيه على معالم وجهها ، وأخرجت لها طرف لساني بحركة مداعبة ، ثم اقتربت من (عادل) وربت على كتفه ثم امسكت بيده أصحبه ، وأسلم لي القياد واتجهنا الى الفراندة وأُجلسته على كرسيه المقابل للذي جلست عليه ، وأخذت اتناول طعامي في هدوء مفتعل ، وأنا أرقب (عادل) من طرف خفي . ومن الجوار القريب كان صوت (**ديمس روسوس**) يأتي مع اغنية (بعيدا بعيدا) وموسيقاها المبدعة يعطي الجو شيئا من الرومانسية ، ويمتص الكثير من التوتر . وكانت الأغنية والموسيقى آتيتين من الفيلا المقابلة والتي تسكنها عائلة (**الهر هانر فالتراوت**) وهو مهندس الماني في منتصف العقد الخامس من العمر يعمل في احد المشاريع التي تموج

بها البلاد وتشاركه الحياة زوجته وابنتاه (**هيلدا و وشيلا**) .

وأغلب الظن انهم كانوا يحتفلون بمناسبة حيث كان يشاركهم العديد من الأصدقاء ولولا الظرف القائم الآن لكنت (وليلى) نشاركهم الحفل ، فهم نسيج ممتاز من **الجيرة الأوربيين** يحبون الناس **ويحبون** الحفلات والمناسبات يخلقونها ليقيموا المزيد من العلاقات الاجتماعية.وحينما اقول انهم نسيج ممتاز من الجيرة الأوربيين ، اعني انهم من القلة التي رفضت ما يجتاح اوربا من علانية في التحلل الخلقي والروابط الاجتماعية والأسرية ، اذ هم اسرة مترابطة ، الزوجة ربة بيت لا تعمل ، ولا يتناولون المشروبات الروحية ، لا يقدمونها في سهراتهم الخاصة ، وكذلك نشأت ابنتاهما (هيلدا ، وشيلا) .

وأغلب الظن ان الجو الرطب في الفراندة وموسيقى وصوت (ديمس روسوس) فعلا فعلهما في امتصاص التوتر العصبي حيث رأيت الاسترخاء على وجه عادل وكان يخالسني النظر ، ورفعت يدى عن الطعام قائلا .

ـ **هيه يا عادل ؟**

ـ يا خالي ما أحس بجوع ، ما أبغي أتعشى .

وبدأت معالم التوتر والتشنج تظهر بعد أن توارت بعض الشيء فعاجلته اوضح الأمر .

ـ انا ما طلبت منك تأكل او تتعشى انا قلت لك كل ؟؟ انا قلت لك هييه (يا عادل) وبس بلاش تاكل ، آكل أنا وحدى ، انما دا ما يمنع اني اسألك عن نفسك ، ليه انت كده ، ليه عامل في نفسك كده ، انا خالك ، وطول عمري صديقك .

ـ يا خالي بصراحة كده انا شاعر اني شيء وبس ، يعني ماني شاعر اني إنسان له احاسيس ، شاعر كده اني حاجة أو شيء بمعنى الكلمة ، لكن انا

انسان احب اشعر أني انسان له قيمته .. انسان محبوب بصراحة كده انـا ناقصني الحب .

وأمسكت بالخيط من فمه فقد كنت اعرف حاجته فعـلا ـ كأختـه ـ الى الأشياء التي لا تراها عيوننا ولكنها تلامس قلوبنا ، الأشياء غير المرئية التي تتحرك داخل بيوتنا وتغلف جدار حجراتنا ، الأشياء التي تعطي للحياة طعمها ولونها ، الأشياء التي تقول عنها أمي في محاضرتها قبل سقوط (عفـاف) . واردت ان أسبر أغوار (عادل) فقلت متصنعا الضحك :

ـ « كده ، ناقصك الحب يا عادل الحمد لله ، والله وكبرت يا حبوب . بسيطة يا بني ، المستقبل قدامك وبكره تكمل دراستك وتسافر بره لزيادة العلم ، وبكره ترتكب كل حماقات الشباب وخاصة اكبر حماقة وهـي انـك تتجوز » واردت هنا ان أبحث عن شيء في داخله ، وكأنـي لمسـت الزنـاد فانطلق .

ـ فعلا يا خالي اكبر حماقة اني اتجوز علشان اخلف ابن او بنت واشقيهم بالحرمان ، انا انسان غير مؤهل اني أكون أب ورب عائلة ، بيقولو فاقد الشيء لا يعطيه ، وانا فاقد الحب والحنان ، محروم منه ، اقرأ في الروايات عن حاجات اسمها عاطفة الأمومة ، حنان الوالدين ، شوقي يقول :

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء

ـ الجماعة دول ـ احيانا بأسأل نفسي بيقولوا ايه وبيتكلموا بالهروغليفي ، حنان الاب والأم دا شيء احنا محرومين منه ، انا وميرفت أختى ما نعرفه ما احد بيحبنا الا داده ، داده هي بس اللي فعلا كانت بتحبنا. تعرف يا خالي.. وهنا استرخي جسمه وترك يديه تسقطان على جوانب الكرسي ومد ساقيه تحت المنضدة وألقى برأسه على حافة الكرسي الخلفية .

ـ نعم يا ابني .. هكذا قلتها بلهفة لأشعره ان حديثه قد استولى على نفسي ومشاعري ..

ـ تعرف يا خالي ، ساعات لما كنا نجلس نذاكر انا وأختي ، كنا نسرح ونقول يا ترى ليه داده ما كانت هي اللي ولدتنا وكانت هي أمنا ، هي اللي كانت بتحبنا واحنا صغار ، وتلبسنا ، وتحضر لنا الغداء ، وفي الليل يا خالي ـ في الليل .

وشعرت كأنه خرج بعيدا عن تواجده وأنه أخذ رحلة عبر الزمن الماضي ، فقد طفح وجهه بالبشر وبراحة ، لا يعرفها الا من فقدها ، وعلت صفحة وجهه طفولة حلوة ، وخيل الى ان (عادل) قد اختفى وان الذي امامي شخص آخر في صورة أخرى وهو يتابع رحلة الماضي .

ـ في الليل ، واحنا في الفراش ، ميرفت من هنا وانا من هناك وهي جالسة على السرير تحكينا وتقول لنا حكايات وحواديت حلوة لحد ما يغلبنا النوم وننام ونحلم الليل الطويل بحكاية بدر البدور والشاطر حسن **وإلا بنت السلطان والأمير برهان يا سلام** ، كانت أسعد أيام ، وفي الصباح هي اللي تلبسنا ملابس المدرسة وتعمل لنا السندويدشات وتلفها في اكياس نايلون وتحطها في شنطنا ، ونرجع الظهر من المدرسة تاخذنا وتروشنا وتغدينا وتفضل ورانا نعمل الواجبات علشان اذا ما عملناها تهددنا انها ما تحكينا في الليل .

واعتدل في جلسته وكأنما عاد فجأة من رحلته عبر الزمن:

-(يعني دادا هي اللي كانت قدامنا ماما نشوفها في الليل مع العشا وساعة أو أقل ، وعلى بال بابا ما يجي نكون احنا راقدين علشان نصحى الصبح بدري للمدرسة ، تقدر تقول لي سبب واحد مقنع يا خالي ، ليه بابا وماما خلفونا اذا كانت الدنيا شاغلتهم عننا ؟؟ لازم فيه حاجة غلط في الوسط لا

احنا ولادهم منتبهين لها ؟؟ اشمعني انتم مو كده اشمعني (ممدوح وصفوان) ولا هم اولادك يا خالي مو كده ، علشان انتم لهم ، متفرغين لهم ، شفت (ميرفت) يا خالي ، شفت ميرفت ساوت ايه مع خالة (ليلى) كانت متشعلقة فيها ودافنة وجهها في رقبتها كأنها بتشرب الحب اللي هي وأنا محرومين منه .

وأردت أن أسجل هدفا يكسر حدة الانفعال ويطفىء جذوة الحديث فقاطعته :

- علشان كده انا اخدتك على البلكونة وجينا هنا ، خفت لا تعمل زي (ميرفت) وتتشعلق انت كمان .

وارتفع صوتانا بضحكات كانت صادرة من القلب ، وكأي صديقين ضحكا لنكتة او ملحة ألقينا بأكفنا نتصافح .

وعلى هذا المنظر دخلت امي تتبعها (ليلى) فرحتين :

-(الهي دايما يفرح قلبك (يا مختار) يا ولدي زى ما فرحتني وشفت (عادل) يضحك من قلبه .

واخذت امي (عادل) الى صدرها تضمه وتقبله فرحة بسماعه ضحكته وانتهزتها فرصة لمداعبة (ليلى) فقرصتها في ظهرها حتى اذا التفتت دفعتني وكأنها تريد ان تمسك بي لولا وجود (عادل) وأمي . وخرجت لتعود وفي كلتا يديها مقعدين لأمي ولها ، ثم عادت مرة اخرى لتحضر الشاي . وكانت الساعة العاشرة ليلا حين ارتفع صوت التلفون وكان المتحدث صهري (محمود) زوج شقيقتي (عفاف) يسأل عما حدث وشرحت له الوضع كاملا . واعتذر عن عدم تمكنه من الحضور ، وكان له العذر في ذلك اذ المدينة كانت عائمة في مياه الأمطار وموحلة في أكثر مناطقها وبالذات في المنطقة التي يسكنها لأنها منخفضة وتحيطها المياه الموحلة من كل جوانبها والطريق الينا دونه أكثر من

عقبة واكثر من طريق مسدود مما يضطر القادم ان يسلك سبلا ملتوية لما تموج به المدينة من مشاريع الاصلاح والتجميل والخدمات التي تنتظرها المدينة وتنتظرها معها الجماهير .

وعدت الى حيث كنا نستمتع بجميل الجو ولطيف المساء . وأخذ عادل يتجهم قليلا ، كأنه يجمع شتات قدراته . ورأيت أن امتص هذه التفاعلات بداخله .

ـ هييه كنا بنقول ايه يا عادل .

سألته وكأني اطلب منه أن يسألني السؤال نفسه .

وهنا تهيأت ليلى لتنصرف لتترك لنا ـ عادل وأنا ـ جو المباحثات . وأخذت تحمل الشاي وطلبت من حماتها معاونتها ، ولكن والدتي تباطأت فخرجت (ليلى) ، وظننت ان والدتي ستظل معنا لولا ان (ميرفت) دخلت تنادي عليها وفي صوتها رنة فرح :

ـ تعالي يا جدة ، اتفرجي على السيرك في التلفزيون .

ولم تترك لها فرصة الاعتراض اذ قفزت لتقبلها على خديها : ياالله يا جدة الله يخليكي .

ووالدتي ضعيفة امام قبلات صغارنا ، فنهضت ولم تكد ؟:

ـ« انا لافىّ اى حيل ولا عندي قلب للسرك يا عفريته ، لكن هه ، الله يهديكي ، والله ما حد داري بقلبي واللي فيه .. نهايته» .واكملت جملتها هذه وهي تتجه وقد اسلمت قيادها لميرفت ، وخلا الجو فتوجهت بكلي الى عادل .

ـ هيه راح تعمل ايه بكره يا سي (عادل) ؟

ـ اول حاجة رايح اعملها ـ بصراحة كده يا خالي ـ أروح المدرسة ،

وبعدين أروح لدادة أتغدى معاها وأقـول لهـا أن مامـا مريضـة ونايمـة في المستشفى .

- قبل ما تروح لماما يعني دادا اول ؟ انت شايف ان دا هو الصح ؟؟

وهنا استرخى (عادل) بعض الشيء فوق كرسيه ، والقى برأسه الى الوراء وضم يديه الى صدره وبدت منه آهة عميقة ثم ابتدر قائلا :

- هو فين الصح يا خالي ؟ انا فتحت عيني على الغلط ، في البيت ميرفت وأنا اللي ربانا الدادة ، اللي كان بيحضر لنا فطورنا ويلبسنا ملابسنـا هي الدادة ، اللي كان بيحمينا دادة ، نرجع من المدرسة تغدينا الدادة ماما وبابا . نشوفهم ونعيش معاهم في عطلة نهاية الاسبوع ، وفي المناسبات والأعياد .. دا صح ؟.. أسألك يا خالي دا صح ؟.

ولمعت عيناه ببريق التحدى وعزز ناظراه في عيني كأنه يستخرج الاجابة من اعماقي ، دون مجاملة ، وأجبته بلا مداراة .

- ابدا ، دا غلط .

- خلاص ، اذن انا معذور لما اعمل الغلط ، لأنه هًودا اللي عشته ودا اللي شفته ودا اللي كان بيعمله الناس اللي حوالي ، من فين اذن اعرف الصح وأعمله ؟ اطلع بره برضه ما ألاقي الصح ، الغلط هو اللي ما شي ، لما كنت ألاقي صعوبة في الدروس أسأل مين ؟.. ابويا راجع في الليل تعبان بدون استعداد لشرح أي حاجة . **امي ؟! وندت عنه ابتسامة** ساخرة بصوت يؤكد السخرية،ما تعرف ولا تفهم في الفيزياء ولا الـرياضيات،علشـان يخلصـو ضميرهم جابو لنا مدرس خصوصي برضه ما فش فايده تسألني ليه ؟، علشان يدرسني ؟ صح كان يطلب مني الغلط تنتظر ايه ؟؟ بيت ما فيه كبير ولا رقابة ولا .. ولا .. ولا ..

اقولك ايه يا خالي الحاجة الصح الوحيدة في حياتي هي داده .

ـ ايه يا عادل واحنا ايه ما فش ؟!

هكذا قطعت عليه الاسترسال لعلي اجعلها دعابة امتص بها شبح التوتر الذي أخذ يطل علينا .

ـ لا يا خالي ـ اجاب بعد آهة ساخنة صدرت عنه ـ انا بأتكلم جد ، انت حاولت وجدّه حاولت مع ماما ، (ميرفت وأنا) كنا بنسمع حواركم وكل مناقشاتكم معاهم بخصوصنا ، لكن كنتم بعيدين عنا في الوقت اللي احنا كنا فيه محتاجين لناس ، أى ناس يكلمونا .. يعلمونا .. يعطونا وياخدوا منا ، اهي دادا هي اللي كانت قدامنا ومعانا وحوالينا دادا هي الحقيقة الوحيدة في حياتنا بصراحة هي أمنا لأنها أعطتنا كل الحاجات اللي بيحتاجها الصغار من أمهم ، انا بأحب أختي (ميرفت) ، انا اكبر منها بست سنين وكنت اشوف دادا تمد رجلها وتحط لها مخدة وتمددها على رجليها وتناغيها لحد ما تنام .. بالليل كانت بتشوف احلام مزعجة وتصحى تبكي بحرقة ، مع اول صوت منها داده هوب وتروح جايا لها وتاخذها في حضنها وتقرأ عليها آية الكرسي **والصمدية**، وتمسح على ظهرها وصدرها ، وانا طبعا مع صراخها ـ اكون صحيت وافضل ساكت وخايف ، نلاقي داده تجلس جنبي وتاخذنا احنا الاثنين في احضانها علشان كده انا بأقولك ان داده هي الحقيقة الوحيدة في حياتي ، هي الشيء الوحيد اللي صح ، غير كده غلط ، البيت غلط ، الشارع غلط .

وتهدج صوته وبدا وكأنه انفصل عن المكان والزمان : بسم الله ما شاء الله الحمد لله ، والله وكبرت يا عادل يا حبوب ..

ونهضت لأقبله وأشد على يده ، فقد شعرت فعلا انه يتحدث احاديث الكبار ، وذلك أمر يسعد له كل أب وشعرت كأني بمثابة أب له .

ـ لا يا خالي ، انا ما كبرت أنا لسه ثمانتعشر سنة ، انا المفروض في عز

شبابي ، والشباب زى ما بيقولوا هو ربيع العمر ، وأحلى فترات العمر ، شوف عندك لما احلي فترات العمر اعيشها بالمرارة دي يا خالي ظلم والا مش ظلم ..

ورأيت الدموع ـ بلا بكاء او نشيج تطفر من عينيه ـ وتجسدت لى اى مأساة يعيشها عادل .

ـ انت فعلا مظلوم يا عادل يا ابني .. فعلا وقع عليك وعلى اختك ظلم كبير ، لكن تفتكر ان الظلم ممكن الواحد يزيله بظلم .. برضه انت لا تظلم مامتك ، حاول ترفع الظلم لتصحيح المسار .

ـ يا خالي أنت تحب تدافع عن أمي ، ماما .. انا ما أكرهها لكن ماني قادر احبها لانها ما علمتني حبها ، ليهّ تدافع عنها ؟ مش هي اللي تركت البيت وتركتنا في رعاية الخدامين ؟ تربية خدم يعني ، ليه ؟؟ كان ناقصها ايه ؟؟ كان ناقصها راجل !..

هكذا قطعت عليه الاسترسال ، وفضلت المواجهة وقد اصبح الحديث حديث رجل الى رجل فقد اعتقدت ـ لدرجة اليقين ـ ان الاحداث التي عاشها كانت كافية لتختصر معه زمن النضج الفكري .

ـ كان ناقصها راجل يلزمها حدودها ، يعرفها ان المرأة عملها الوحيد والتي مصنوعة من اجله هو البيت ، البيت هو المشغل اللي يستنبت فيه الانسان ، المرأة مسؤوليتها استنبات الانسان تماما زى الفلاح ما يستنبت الزرع ، الراجل فينا ، زي اللي بيحرك الساقية مربوط فيها .. يستخرج الماء من الارض .. من البئر يرفعها علشان يروي الارض ، كمان الراجل مهمته ان يستخرج الرزق من سعيه وكده ، والفلوس اللي بيكسبها هي الرزق اللي ربنا رزقه .

يعني الحياة ساقية ، والراجل دوار فيها ، وزي ربنا ما حفظ الماء في الأرض ، والساقية ترفع الماء لتروي الأرض ، كمان ربنا حفظ لنا الرزق وقال

للراجل يسعى ـ في الساقية ـ يستخرج رزقه ، انما المرأة هي اللي تستنبت الاجيال ، نتعامل مع الانسان ، دي يا عادل يا بني خصوصية ربنا خص بها الأنثى في كل مخلوقاته ، خصوصية التعامل مع النوع ، انما الراجل ، او الذكر في كل مخلوقات الله ـ يتعامل مع الاشياء ، ولو كانت أمك لقيت الراجل اللي يلزمها بيتها ويعرفها طبيعة عملها ، ما كان حصل اللي حصل .

ـ لكن امي انسانة متعلمة يا خالي ، متعلمة ومثقفة وعندها درجة جامعية ، المفروض انها تكون عارفة مسؤوليتها ، **وعارفه** الكلام اللي بتقوله حضرتك .

ـ هه ، متعلمة ؟؟ـ وشعرت اني اتكلم بسخرية عن التعليمـ .. يا بني ما هي دى مشكلتنا ، يا بني احنا قلنا ان المرأة اذا اتعلمت تصبح فلاحة بدرجة جامعية تستطيع تفلح المشتل الانساني ، والتعليم يكون سلاحها ضد العاديات ، اللي حصل هو العكس ، اللي حصل هجرة من المشتل الى الدنيا ، زى الفلاح لما يترك الأرض ويهاجر للمدينة ، اللي يحصل ان الزراعة تموت ، والارض تموت والمدينة كمان تموت ، لانه ما فش انتاج زراعي ، يعني ما فش ، امن غذائي .

أهو اللي حصل كمان ، ان المرأة هجرت البيت الى الوظيفة ، والنتيجة اللي انت عايشه انت واختك ، ويا خوفي على الاجيال القادمة ، ايه راح تكون اخلاقياتهم ؟ المجتمع نفسه راح يخسر الانسان المستنبت .

ـ طيب ولما انت عارف دا كله يا خالي ، ليه كنت سلبي مع (ماما ؟) .

وخيل الى ان (عادل) كان يتحدث باسترخاء ، فقد كان صوته رقيقا يعكس نفسية طيبة .

وفجأة ارتفع صرير الهاتف من الداخل ، وجاءت (ميرفت) في خطوات راقصة ترفعها عن الأرض ، فما تكاد تلمس اطراف أصابعها الأرض حتى

ترتفع مرة اخرى في الهواء وكأنها راقصة باليه تؤدي دورها في رقصة بحيرة البجع ، والقت نفسها فوق صدري قائلة : واحد على التلفون اسمه (حمدان) يحب يكلمك . ولم تسعفني ذاكرتي بالتعرف على (حمدان) هذا الذي يكلمني في منتصف الليل ، ونهضت الى الهاتف ، وما تزال (ميرفت) متعلقة بصدري وعنقي . وعجبت في دخيلة نفسي كيف تحولت شقيقتي (عفاف) الى الرجولة التي تمارسها ، كيف خرجت عن طبيعتها ، هذه ابنتها تتعلق بصدري وكذلك كل البنات انهن غريبات ، ودودات يتوددن ويتحببن ، هذه غريزة اودعها الله فيهن ، ولمست ذلك في صغاري ، (**ممدوح وصفوان**) قد يتبرمون لو قبلتهم ، او والدتهم ـ امام الغير ، اما (**هديل**) وهي ابنتي الوحيدة ، حتى الآن ـ فلا اذكر انها رأتني ولم تلق بنفسها كلها على صدري وتعلقت برقبتي وضغطت صدرها وجسمها كله الى صدري لتلتصق بي ، ولم يفعل اى من اخويها ذلك رغم تقارب السن ، تلك اذن هي الفوارق بين ان يكون المخلوق ذكرا ، او انثى ، «وليس الذكر كالأنثى» وصدق الله العظيم ..

وأمسكت بسماعة الهاتف ، ليأتيني الصوت من الطرف الآخر .

ـ ألو عم مختار ، كيف حالك ، انا حمدان ، متأسف اني اكلمك في وقت متأخر .

ـ العفو يا أخي ، بس مين حضرتك ، حمدان مين .. واى خدمة ؟.

ـ يا عم مختار انا (حمدان) جار الوالدة في العمارة ، والدتكم ، متأسف اني ازعجكم في وقت متأخر لكن اتفضل خد واحدة ست تبغي تكلمكم وتسأل عن الوالدة وعن الست عفاف .

وقبل ان اشكره واطمئنه وأسأله عن السيدة التي تود محادثتي كان صوت الخالة (**فاطمة**) ينادي :

ـ يا مختار ، مختار يا ولدي طمني ، انا قلبي بيودي ويجيب من ساعة ما خرجتوا ولا حس ولا خبر ، الدنيا صارت نص الليل وانتم ما رجعتوا من المستشفى طمني ، خلي امك تكلمني .

وكانت تتكلم بسرعة عجيبة لم تعهدها من قبل ، وكان ذلك دليل اللهفة والحب ، واخذت اطمئنها ان كل شيء ـ ان شاء الله ـ على ما يرام وانني اخذت والدتي وميرفت وعادل لقضاء ايام عندي ، وكان عادل يغالبه الضحك وانا اتحدث في التلفون، ذلك انني كنت احرك رأسي ايجابا وارفع يدي واضعها بالتحية والطمأنينة اثناء حديثي . واعطيت سماعة الهاتف لوالدتي ، لتكمل الحديث مع خالة (فاطمة) ووجدت (عادل) ينفجر ضاحكا .

ـ «يعني هي كانت شايفاك وانت بتتكلم يا خالي ، علشان تهز رأسك وتعمل الحركات إياها ، قدامها وهي موجودة قلنا معقول لكن من وراء التلفون ؟؟ ولا ان كانت شايفاك بالتلفزيون »..

واستطرد ضاحكا . ورضيت نفسي لهذا التغيير الذي حدث (لعادل) ، وضحكت معه ووضعت ذراعي فوق كتفيه كأي صديقين .

ـ تقول فيها يا (عادل) طيب اراهن انني لو ما كنت عملت إللي عملته ، لكان زمانها معلقة ، ثم اتفضل خذ كلمها انت ، **لو كلمتها** كده ومن غير ما تعمل الحركات المطلوبة شوف ايه النتيجة ، انا بيتهيأ لي ان عندها حاسة خاصة للحكاية دي .

واعطيت لعادل سماعة الهاتف ، واتجهت الى غرفتي لآخذ (الروب) اتقي به رطوبة الليل وبرودته في اواخر الليل ، وكانت الساعة تشير الى الثانية عشرة . وعلى باب الغرفة التحمنا، (ليلى) خارجة وانا داخل ، وسرت رجفة خفيفة في

جسمينا أفصحت عنها ابتسامة متبادلة فوق شفاهنا وكدت ان اجعلهما تلتقيان ولكن (ليلى) حالت دون ذلك اذ انسلت خارجة تسأل :

-الساعة نص الليل لازم يناموا ، وبكره وراهم يوم طويل ، والوالدة ما عمرها سهرت الوقت دا ، أنا رايحا لها آخذها على غرفتها وآخذ (ميرفت وعادل) على غرفتهم .

ـ وهو كذلك ، انا كنت جاى آخذ الروب علشان اكمل الجلسة مع عادل في الفراندة وكلها شويتين وننام بس انتي شوفي ماما .

واتجهت لأخذ الروب ، ولدى خروجي كانت (ليلى) تناقش والدتي في ان نذهب لننام وهي تقاوم .

ـ يا ليلى يا بنتي ، الهي يسعدك ولا يحرمك من اولادك ، مين يجيله نوم يا بنتي ، كيف يجي لي نوم ، اى قلب يكون عندي لما انام وأنا عارفة (عفاف) في المستشفى ، والله اعلم ايه جرى لها ، روحي انتي الله يرضى عليكي نامي ، ربنا لا يحرق لك قلب على اولادك .

ـ حاضر يا خالتي ، تصبحي على خير .

ـ«وانتي من اهله (يا ليلى) بس خدى بالك من ميرفت خليها تنام ، مين عارف يمكن تصيري امها كمان»· وتحشرج صوت والدتي وكنت بين يديها واحببت ان امتص بعضا من الحزن الذي يغلف قلبها كما اظهر ذلك كلامها مع (ليلى) عن (ميرفت) .

ـ ايه يا ماما ، هو من دخل المستشفى يعني انتهى ، والا ايه يعني كلامك دا ، وعلى فكرة فيه نكتة سمعتها عن المستشفيات تقول ان واحد اتوفى الى رحمة الله ، واحد صاحبه سأل عنه (يا ترى مات من ايه ؟ كان مريض ، والا

حادثة والا ايه ؟) صاحبه الثاني قال له : حسب شهادة الوفاة الصادرة بيقولوا اسباب الوفاة بمعرفة المستشفى .

ولم تضحك والدتي ، ولم تبتسم ، ولو مجاملة لـ (ليلى) اما (ميرفت) فقد سألتني : ايه هي النكته خلصت ؟؟

وتأكد لي انني لا زال احتفظ بقدراتي في اداء النكت البايخة والباردة .

وفجأة وصل الينا صوت (عادل) وكأنه يستغيث او يبكي ، فقد كان ما يزال ممسكا بسماعة الهاتف وعلى الطرف الآخر الخالة (فاطمة) ما زالت تكرر السؤال عنه وعن صحته ، وهو مصر على رأيه في عدم اداء الطقوس الخاصة بالخالة (فاطمة) فأشرت اليه ، ان اراد الخلاص وانهاء المحادثة ـ وقد مضى عليه ثلث ساعة تقريبا ـ ان يؤدي للخالة فاطمة طقوس الحديث معها وما كاد يفعل حتى توقفت على الطرف الآخر ـ عن السؤال عن الصحة والعافية وانتقلت الى حديث آخر . ولكي أنقذ (عادل) وأُنقذ ليلتنا وأُنقذ السيد (حمدان) صاحب التلفون الذي تتحدث منه الخالة (فاطمة)،اخذت سماعة الهاتف من (عادل) وداعبت الخالة فاطمة قليلا ، ولم تنته المحادثة الا حين وعدتها بالمرور عليها ـ مع الفجر ـ لاصطحابها لرؤية شقيقتي (عفاف) .

وعدت الى عادل فوجدته رافعا يده كمن تخلص من كابوس :

-انا ما كنت اتصور أبدا انها بالشكل دا ، غير معقول طيب عرفت من فين اني حركت راسي ويدي .؟

وضحكت : (مو قلت لك) والآن يالله بنا ننام وبكرة الصباح رباح ، ايه مشر وعاتك؟.

ـ اول حاجة اروح المدرسة ، وبعدين امر على دادا اطمئن عليها واخذها معايا نزور ماما .

ـ لازم يعني المدرسة بكرة .

ـ لا ، لازم ونص طبعا يا خالي .. انا السنة دي ثانوية عامة ، ولازم اجيب اكبر مجموع وبعد كده ادخل الجيش ، انا خلاص قررت .

ـ قررت ايه (يا عادل) ثم ايه حكاية الجيش ؟؟ انت عمرك ما فكرت الا في الهندسة او الطب ، ثم غياب يوم واحد ما راح يؤثر ، بس فهمني ايه سبب اختيارك للجيش ؟؟ علشان تدافع عن الوطن .. صحيح دا هدف نبيل واشجعك عليه ، بس ايه الدافع الآن ؟

وضحك في سخرية واقترب مني ولف يده حول عنقي كأي صديقين ..

ـ الحكاية لا شجاعة ولا دفاع عن الوطن ولا شرف الموت جهاد ابدا ، انا داخل الجيش بأبحث عن الموت، ما هو اذا كان الموت ، مش جاي اروح له انا .

وضحكت ضحكة مجلجلة تعمدت ان تظهر فيها نبرة السخرية ثم اردفت

ـ (الموت) لا انت ولا احد في الوجود يروح له، الموت هو اللي يجي للواحد هو اللي يلاقينا وحظك نصيبك .. يلاقيك على غفلة او يلاقيك مستعد له .. ربنا بيقول (قل إن الموت الذي تفرون منهِ ، فإنه ملاقيكم) .

ـ لكن انا مش بأفر منه .. انا رايح له بنفسي .

ـ اسمع (يا عادل) يا ابني .. والله لو عملت اللي ما يعمل ، ما راح تموت الا في وقتك .. وأنا بأقولك كده علشان فعلا اذا التحقت بالجيش تكون الكلمة دى في عقلك واضحة ، لا يمكن تموت الا في الوقت المحدد ، لما ربك اللي خلق نفسك يطلبها ويقبضها ، « وما كان لنفس أن تموت الا بإذن الله ».

ـ آمنت بالله ، طيب وايه العمل يا خالي ؟؟

ـ ولا حاجة تعالى بنا نموت كلنا الليلة والصباح رباح .

ـ الله !! قالها بلهجة استغراب وسؤال (نموت الليلة والصباح رباح ؟ منين نموت الليلة ، ومنين الصباح رباح) .

ـ ليه هو انا مش قلت لك ؟؟

ـ لا ..

ـ شوف يا سيدنا ، انت ما تعرف ان النوم عبارة عن موت مصغر ، يعني بروفة موت ، وفعلا هو موت مؤقت ، ما قرأت في الكتاب (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى الى اجل مسمى) .

ـ آمنت بالله ، صدق الله العظيم .

ـ يالله بنا يا (عادل) الى الموت ، قصدي الى النوم .

ـ يالله بنا .. وحدووووه

ـ لا اله الا الله .



في المستشفى

كانت الساعة تشير الى الثانية بعد منتصف الليل حين ظهر من أقصى الممر الغربي للمستشفى جسم يتحرك وئيدا ويميل يمينا وشمالا ، وشيئا فشيئا اخذت تتضح معالم ذلك الجسم المتحرك ، او تلك الكتلة ، فقد كانت السيدة أو (الحاجه) كما يتعارف الجميع على تسميتها (امينة) وهي سيدة تجاوزت العقد الخامس من عمرها أو أكثر ولكنها تحتفظ بكثير من خفة الدم وخفة الروح رغم ما تحمله من أكداس اللحم المفرط والبدانة المفرطة . وكانت خارجة في مشوارها التفقدي المعتاد ، ولتقدم في الصباح تقريرها ، الذي لا يقرؤه أحد سوى مدير المستشفى نفسه الدكتور (**سامي**) .

فقد التقطها الدكتور سامي حين رآها لأول مرة وكانت تحت وطأة مذلة السؤال بالحرم المكي الشريف ، وبنظرة الخبير النفسي والاجتماعي رأى انها « عزيز قوم ذل »، فعرض عليها العمل بمستشفاه حتى لا يجرح كرامتها ضامنا لها السكن وبقية متطلباتها نظير أن تكون المشرفة الليلية المطلقة ، وكان ذلك القرار بعد ان تعرف اليها أكثر وأكثر .

ومنذ ذلك اليوم وهي تنام النهار أو بعضه ، وتقضي البقية الباقية منه في

الاشراف على المطبخ وطريقة الطبخ ، وكانت تتدخل ـ تدخلا مقيدا ـ في كل كبيرة وصغيرة ومع كل موظفي المستشفى اداريين وفنيين ، وكان الكل يتقبل منها ذلك قبولا حسنا لما جبلت عليه من حب للجميع ، وحنان دافق وطيبة قلب مفرطة ، وكثيرا ما كانت ترفع الصوت مهددة ومتوعدة بأنها ستبلغ المدير وتكتب اليه التقرير . وكان كل فرد بالمستشفى يعرف ذلك عنها ، ويشبع هذه الروح فيها بأن يمشي خلفها او يلمس كتفها ـ والممرضات يقبلن خدها ـ راجين الصفح والغفران وعدم تبليغ المدير ، وهنا كانت تبدو عليها معالم السعادة والرضى ، فتعدهم بالسماح على شرط عدم العودة لمثل ذلك ، ثم تستكتبهم تعهدا كتابيا بالتوبة والندم وعدم العودة ، وما أكثر ما استكتبت جميع افراد هذه المستشفى ولم يبق الا الدكتور (سامي) نفسه،ولولا بقية من احترام للكبار لفعلت ذلك مع الدكتور سامي نفسه ، واصبح لديها في حجرتها تعهدات واوراق كثيرة تقضي معها الليل وأوقات فراغها ، فاذا ما انتابها الأرق ـ وكثيرا ما كانت تأرق بسبب نومها النهار واسرافها في شرب القهوة ـ خرجت بالليل لعملية المراقبة ـ السهارية ...

اتضحت معالم الحاجة (امينة) وهي تتدحرج في الممر الهادىء بعد منتصف الليل . وكانت تلمس ابواب الحجرات على الجانبين ، وتقف قليلا عند كل حجرة ، كأنما لتتأكد ان ساكنيها نيام ولا شيء ينقصهم ، حتى اذا اقتربت من غرفة (المراقبة والاشراف) ، وهي غرفة مجهزة تجهيزا الكترونيا ، بحيث يمكن منها معرفة ما يجري في كل حجرة من حجرات المرضى وتستقبل اشارات خاصة ضوئية واخرى صوتية ، وهي اشبه ما تكون بغرفة (التحكم او الكنترول) ومنها تصدر الاشارات المنعكسة مستجيبة لكل حالة بحالتها ، او يتم الاتصال بالطبيب المناوب او غرفة الانعاش . ومسؤول عن هذه الحجرة ثلاث فتيات مؤهلات تأهيلا عاليا ، ولعل الآنسة (هدى) وهى المنوط بها الاشراف او المسؤولة عن هذه الحجرة قد ذهبت لقضاء الحاجة في الحمام

المجاور داخل الغرفة ، وهنا وجدت الحاجة أمينة غرضها فان المشرفة غير متواجدة في مكانها ، فدلفت الى الحجرة ، وتعجبت لما فيها من اجهزة متطورة ، وكانت على شاشة التلفزيون الداخلي تظهر صورة (عفاف) بحجرتها وبجوارها ممرضتها ، وتبدو عفاف وهي قلقة أو كمن يعاني كابوسا ـ رغم غيبوبتها ـ وشفتاها تتحركان .. وممرضتها بجوارها تلاحظها .

واستغربت الحاجة أن يظل الارسال التلفزيوني قائما حتى الآن ، ظانة ان ذلك هو البث العام ولم تكن تدرك ان هذه شبكة داخلية ، فأقسمت أن تضع ذلك في تقريرها ضد الآنسة (هدى) التي تركت مكانها وكانت تستمتع بمشاهدة التلفزيون ، واقتربت من الشاشة تريد انهاء الارسال ولعل احد اصابعها لمس مفتاحا مجاورا فأخذ صوت عفاف يصيح مسموعا ولكن بطيئا وفي ايقاع متواصل عادل .. عادل .. عادل .. عادل ..

وأخذ الصوت يتردد في ايقاع اشبه ما يكون بما يردده أصحاب حلقات الذكر او الزار ، ولما كانت « الحاجة » من بقايا الجيل الأسبق ومحرومة الثقافة الا ما كانت تتلقفه من أساطير متوارثة ، فقد خيل اليها ان هذه حالة طارئة من حضرات الأسياد خاصة وأنها قفلت الصورة على الشاشة فاختفت الصورة وظل الصوت يتردد في ايقاعه ، وكانت الحاجة مع كل تردد ايقاعي لكلمة عادل ، تهتز ويهتز معها كل جسمها وخاصة رأسها ورقبتها وهي ترد :

« دستور ، دستور يالله ، دستور يا سياد ، دستور يا شيخ عادل »

وبدا الاضطراب والحزن عليها فولت خارجة وكادت تتعثر فلمست بيدها مفتاحا بغير قصد ، واذا الصوت الذي كان منحصرا في حجرة التحكم اصبح يتردد في كل طرقات المستشفى ومن كل مناطق النداء، وخرجت الحاجة (امينة) مولولة ، والصوت يطاردها في ايقاعه:عادل .. عادل .. عادل .. وهي تصرخ (دستور .. يا شيخ عادل دستور ياسياد).. وما كادت تصل نهاية الممر حتى هدأ الصوت مرة واحدة فقد خرجت الآنسة (هدى) سريعا واعادت

الاوضاع الى الوضع الصحيح،ولمحت الحاجة (امينة) تتحـرك بسرعـة الى حجرتها فعرفت انها السبب فيما حدث ، فحدثت نفسها ان تجعل من ذلك مجالا للمداعبة ففتحت الجهاز على حجرة الحاجة (امينة) التـي كانـت قد وصلت لحجرتها ورمت بنفسها على فراشها نفسها وغطـت بكل الاغـطية المتوفرة ، كل ذلك كان يظهر على الشاشة امام الآنسة (هدى)-حتى اذا ما اوشكت الحاجة (امينة) ان تهدأ رعشاتها ، جاءها صوت الآنسة هدى وهي تقلد صوت شبح .

ـ (اناالشيخ عادل يا حاجة امينـة) ، وهنـا ازدادت رعشـات الحاجـة (امينة)، وأخذت اسنانها تصطك وتحاول ان تتكور داخل الأغطية حتى لا تسمع الصوت ولا يراها الشيخ عادل .

ـ (يا حاجة أمينة)، باقول لك انا الشيخ عادل ، شايفك ؛ يعني فاكرة البطانية تخفيكي عن عيني ، حتى رجلك اليمين طالعة من تحت البطـانيه وبترعش ، قومي فزي). وجاءت الكلمتان الأخيرتان بصوت آمر فنهضـت (الحاجة) وهي تحوقل وتقرأ وتنفخ حولها عن يمين وشمال .

ـ (اهه.. اه انا قمت يا شيخ عادل ، دستور)، وكانت توشك ان تنهار من الخوف ، و (هدى) تكاد يغمى عليها من الضحك ، وجاء الصوت :

ـ (لا تخافي يا شيخة أمينة ، انت من هنا ورايح اسمك الشيخة (أمينة) ، انتي اختي في الله ، أُخت الشيخ (عادل) انت فيكي حاجة لله ، والناس كلها تحبك ، كمان انا الشيخ (عادل) بجلالة قدري أُحبك وراضي عليكي ، قومي وروحي الغرفة (٧) في الدرجة الأولى الممتازة تلاقيني هناك ، وان شاء الله على يدك بعـد الله يكون الشفـاء ، قومـي على بركة الله وانـت بركة هذا المستشفى) .

وسرت في نفس الحاجة أمينة مشاعر السرور والغبطة والطمأنينة ، ورمت بالأغطية من فوقها وأسرعت تصلح من مظهرها واتجهت الى باب الخروج ،

وجاءها الصوت : (ايه دا يا شيخة (امينة) ، انت خارجة حافية من غير جزمة او شبشب .. يادي الفضيحة) .

وعادت تجرى الى الداخل تلبس حذاءها وهي تردد:(دستور ، دستور معليش شيخ عادل سامحني اهه ، اهه لبست الجزمة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، يا منجي من المهالك يا رب ، دستور يا شيخ عادل)..

وخرجت تتدحرج بجسمها المليء بينا كانت الآنسة (هدى) تراقبها بواسطة الشبكة التلفزيونية . والآنسة (هدى) هي احدى ثلاث فتيات مسؤولات عن غرفة التحكم وكل منهن تحمل مؤهلا عاليا في التمريض وعلم النفس ، وأغلب الظن ان روح الدعابة فيها تغلبت على عزيمة الادارة ، فكان ان أخذت تفتح جهاز الصوت على طول الطرقة التي سلكتها الحاجة (أمينة) وبالتالي فقد كان صوت عفاف يتردد مناديا ابنها (عادل) في ايقاع كانت تستجيب له الحاجة (أمينة) في خطواتها وكأنها تؤدي طقوس حلقات الذكر وهي تحوقل وتحصّن نفسها بيدها من فوق رأسها بالمعوذتين .

وما أن وصلت للغرفة رقم (٧) حتى توقفت بعض الشيء متسائلة هل تستأذن في الدخول ، ام تدخل بدون استئذان فهي مأمورة من الشيخ (عادل) وصور لها ما ورثته من شوائب خرافية ، انها مأمورة وان هناك قوة خفية من الأسياد ممثلة في الشيخ (عادل) وما كان لها أن تعرف من (عادل) هذا واستقر رأيها انها مأمورة فأمسكت بأكرة الباب وادارتها واندفعت فاذا هي داخل الحجرة ترى (عفاف) تعاني سكرات من القلق والأرق ، ويتفصد العرق من جبينها رغم برودة جو الحجرة وقفز الى ذاكرتها ما حسبته عرضا تلفزيونيا حين رأته في حجرة الكونترول .

ـ يوه ، هو انت اللي في التليفون . وضربت الحاجة (أمينة) على صدرها وقفزت الممرضة الساهرة على (عفاف) مشيرة بيدها ان تصمت ، و (عفاف)

تردد اسم ابنها (عادل .. عادل .. عادل) وعادت الحاجة امينة الى اهتزازاتها الايقاعيةثم ابعدت الممرضة ، واقبلت على (عفاف) ترقبها وهي تمر بيدها فوق رأسها وحولها ومقدمة صدرها مرددة (بسم الله ارقيكي من كل ما يؤذكي ، بسم الله رب الناس ، اله الناس ، ملك الناس ارفع البأس ، باسم الله الأكبر ، ارقيكي من كل ما نخاف ونحذر) وظلت تردد ذلك في اصرار عجيب ومتابعة بدون توقف .

وأخذت خيوط الفجر تتسلل رويدا رويدا ، فيما أخذت (عفاف) تهدأ بعض الشيء وأخذ تنفسها يعود طبيعيا ، وبدت وكأنها أخذت تستغرق في نوم هادىء عميق وقد ارتاحت صفحة وجهها وأشرقت عليه مسحة من الطمأنينة والراحة وتطلعت الآنسة ـ بارعة ـ الممرضة المصاحبة لعفاف ـ الى لوحة المراقبة بجوارها ثم ضغطت على الأزرار اسفل اللوحة فظهرت صورة الآنسة (هدى) وصوتها .

ـ (ممتازة،حاجة عجيبة ، النبض طبيعي ، التنفس طبيعي ضغط الدم ارتفع الى المعدل الطبييعي رسم الدماغ يعطي علامة الهدوء التام ، المريضة نائمة تماما ، سأتصل بالدكتور (سامي) لكن برضه خليكي متيقظة يا (بارعة) .

واختفت الصورة من اللوحة ، ولكن الحاجة (أمينة) لم يكن يعنيها شيء من ذلك ، فقد استمرت في تلاوة آيات الحفظ من القرآن الكريم ويدها على صدر (عفاف) .

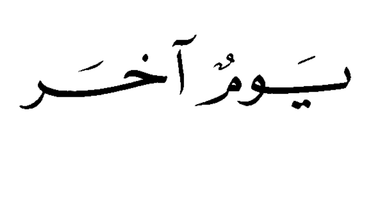
ولم يطل الوقت بالدكتور (سامي) حيث اتجه مباشرة الى غرفة المريضة ومن هناك اتصل بغرفة الكونترول وطلب تقريرا عن حالة المريضة طوال الليلة السابقة ، واستمع الى تسجيل كامل عنها ، ثم أخذ يتفحصها دون ان يزعجها وطلب اخلاء الغرفة الا من الممرضة طالبا منها البقاء فترة اضافية حتى حين استلام الممرضة الاخرى ، كما طلب عدم السماح لأحد بزيارتها الا بعد المرور عليه شخصيا .

وترددت الحاجة (أمينة) في مغادرة الغرفة مؤكدة للدكتور سامي انها مأمورة من (الأسياد !) بمعرفة الشيخ (عادل) ، وبعد مناقشة مرحة طلب اليهـا في تواضع ان تحضر معه الى حجرته لتعطيه تقريرهـا الصباحـي وخاصـة عن موضوع الشيخ (عادل) ، وتظاهر بأنه يعطي اهمية خاصة لتقريرها ولعل ذلك أرضاها كثيرا فتحاملت على نفسها بعد ان كررت الرقية والتعاويذ .

وفي غرفة الدكتور (سامي) أضاء ضوء جهاز الاستماع ، وكان على الطرف الآخر الآنسة (هدى) تعطى تقريرها عن الفترة السابقة ثم ذكرت قصتها مع الحاجة (أمينة) وما عملته معها وقصتها مع الشيخ عادل (والاسياد !) ولم يخف الدكتور (سامي) رضاه عما حدث وعكس ذلك ما يتمتع به الدكتور من روح المرح والتواضع . ولم يعتبر ذلك اخلالا بهيبة الادارة والعمل . ومع انتهـاء المحادثة ، كانت الحاجة (أمينة) تدلف الى غرفة الدكتور (سامي) لتعطـي تقريرها وكيف أنها ـ بعد الله ـ ومساهمة الشيخ (عادل) قد ساهمـت في تحسين حالة المريضة .

ورسخ الدكتور (سامي) هذا الشعور في نفسها ليرضيها مؤكدا ان ما قرأته من القرآن مع صدق نيتها كان له الفضل فيما وصلت اليه حالة المريضة .




يَومُ آخَر



مع خيوط الفجر الأولى كانت (ليلى) قد أدت صلاة الفجر بعد أن أيقظتني لأدرك الفجر قبل فواته أثر مجهود الليلة السابقة ، واتجهت لتعد الافطار ـ كالعادة ـ وهذه إحدى فضائلها التي احتفظت بها ـ فما كانت تؤوم الضحى مثل كثيرات من لداتها ، ثم هيأت الصغار لمدارسهم وأيقظت (ميرفت) استعدادا للذهاب الى المستشفى ، ثم طلبت مني أن اوقظ عادل ، ولم يكن قد نام اذ حين طرقت باب غرفته لم يجب فدلفت لأجده خارج غرفته بالفراندة الملحقة وهو في كامل ملابسه .

ـ ايه الحكاية يا عادل مو اتفقنا البارحة على ان كل واحد فينا يروح على غرفته ويموت فيها بقية الليل ، وافترقنا على كلمة وحّدوه .

ـ صباح الخير يا خالي .

قالها في لهجة مرح وكأنه يذكرني انني لم ألق عليه تحية الصباح ، فتداركت ما فاتني . واستطرد عادل في لهجة فارقتها نبرات الأسى والحزن .

ـ تعرف يا خالي ، انا فكرت كثير البارح في كلامك عن الموت والحياة ،، ولقيت ان حياة يكون نهايتها العدم والفناء ، ما تسوى ان الانسان يحزن على

شيء فاته فيها ، وما دام الانسان لا يمكن يموت قبل أوانه وما دام الموت شيء لا بد يقابل الانسان .انا قررت اني أروح اقابل الموت ، وامشي له في كل طريق لحد ما اقابله وبطريقة شرعية .

وأكذب لو قلت انني استطعت ان اخفي انزعاجي من لهجته الصادقة ونبرات صوته الواضحة الهادئة ، ربما لا يكون في الأمر مدعاة الإلازعاج لو جاء هذا الحديث من شيخ فان ، أو كهل قضى أربا من الدنيا أو أكثر ثم تاب ، اما أن يأتي هذا الحديث من شاب في مقتبل العمر وفي مثل سن (عادل) فذلك أمر لم نعتد عليه ، وكان ذلك سبب انزعاجي .

وضحك عادل وكأنه قرأ ما يدور في نفسي ، وكأنه لمس معاناتي في اخفاء انزعاجي :

ـ انت بتحاول انك تظهر قوى الأعصاب يا خالي ، انت انزعجت من كلامي ليه .. ما دام الحياة اللي احنا عايشنها نهايتها مؤكد الموت ، والموت جاى ولازم كل نفس تلاقيه ، طيب ليه ؟؟ ايه المزعج ، انه اروح اقابله .. اخرج له ؟؟ انا ما قصدت اني امسك سكين وانتحر ، أو حبل ومشنقة او رصاصة وأنهي الأمور ، لا أبدا ، بالعكس ما دام في موعد للقاء ، انا أخرج للموعد دا ، وبيني وبينك ، انا ما جئت بجديد ، كل واحد فينا يا مخلوقات الله ، في كل لحظة وفي كل آن بيمشي ويروح ويجي وهو في رحلة اللقاء .

وضحك (عادل) مرة أخرى ضحكة مجلجلة : (والا أنا اصبحت فيلسوف يا خال ؟!)

وجاء صوت (ليلى) يدعونا «للفطار» . وعلى مائدة الافطار ، وكان صغارى قد غادروا الى مدارسهم ، سألت (عادل) والدتي : (رايح المدرسة يا عادل يا بني والا تروح تشوف امك اول ؟؟ احنا رايحين على المستشفى كلنا ومعانا ميرفت) .

اطرق مليا ثم رفع رأسه : ماني عارف والله ، انا كنت ناوي اروح المدرسة وبعدين افوت على داده أطمئن عليها وابلغها ان ماما في المستشفى وأخذها معايا ونجي على المستشفى مع بعض .

ـ اللي تشوفه يا عادل .

هكذا تدخلت لأحول دون ان تقع الوالدة في خطأ غير مقصود بالنسبة لمشاعر (عادل) الجريحة . واستطردت : على العموم انت تخرج معانا في السيارة اوصلهم للمستشفى وآخذك محل ما تحب ـ على المدرسة ـ مثلا وبعدين بعد ما اطمئن على عفاف اروح انا كمان الشغل .

ـ تفتكر كدا صح يا خالي ، بصراحة انا فكري مشوش ، فكر لي شوية .

ـ اسمع (يا عادل) يا ابني انا مستعد افكر معاك ، انما افكر لك لا .. شوف يا ابني ، انت عارف ايه وليه مامتك دخلت المستشفى .. مامتك اصيبت بصدمة عاطفية ، شعرت انها فقدتك ، انك انفصلت عنها عاطفيا ، وهي كانت مدخرتك انت رجل لها اذا اتقدمت بها السن ، تعرف ليه ؟؟ اولا لأن والدك رايحة تتقدم به السن كمان ، وفي الوقت الحالي ، الله يسامحه والسلام ما اعرف حكايته ايه ، تارك الامور سبهلله كده ..

ـ تسمح لي يا خالي .

وانفذ عادل يقطعه استرسالي فقد خيل الي اني فقدت ربط الحديث بالمعني فيما كنت اود احدثه عنه وعن والده واسترسل محدثا .

ـ الحكاية لا تحتاج الى مبررات،والدي لو لقي في البيت ست أو لو وجد في البيت حاجته ما كان ترك البيت بالصورة التي احنا عايشينها ، والا انا غلطان .

ـ بالعكس يا عادل انت صح خمسين في المائة ٥٠٪ ، والخمسين الثانية علشان يتساوى طرفي المعادلة . والدتك لو وجدت راجل ، بمعنى

الراجل ، اللي يوقفها عند حدها ، ويرجعها لجادة الصواب ، ويلزمها وظيفتها اللي ربنا خلقها من اجلها ، ما كان حصل اللي حصل ، والدك تهاون ، علشان ما يقولوا عليه انه راجل متخلف ورجعي ، وانما راجل سبور ، ومودرن ، ويتمشى مع حقائق العصر .

ـ تسمح لي يا خالي انا بصراحة ، فكرى مشوش من الناحية دى .. مين السبب ، وليه تتعلم البنت وتاخذ شهادة جامعية ، علشان ايه اذا ان نهايتها البيت والزواج ، انا مشغول بالي على ميرفت .

وجاء صوت والدتي يستعجلنا على الفطار ثم الخروج من أعنف عتاب وأقساه (ما هو لو كان لك بنت في المستشفى ما كنتم واقفين تدردشو وسايبيننا مرقوعين هنا .

ـ جاهزين اهه ..

على صوت واحد اجبناها وخرجنا مهرولين ، مؤكدا (لعادل) ان (ميرفت) لن توافق في مستقبل حياتها ان تكون غير ربة بيت ، ودا تمن التجربة اللي انتو مريتم بها ، على اى حال راح نتكلم في الموضوع دا بعدين انا وانت وخالتك ليلى.. اوكي ..

وضربته على كتفه استعجله ، فأجاب موافقا بنفس اللهجة «اوكى» خلو ..

وعلى عجل تناولنا إفطارنا ، فلم يكن الموقف يحتمل اى تلكؤ ، ولا عدم العجلة فقد كانت الوالدة تقف في قلق واضح عند باب الخروج ، ولفت نظري اكثر شيء ان ميرفت كانت تقف على خدمة أخيها ، تناوله كأس الحليب وتتناول منه الملعقة بعد تحريك السكر ، وتقدم له حبات البيض نصف المسلوق ، كانت تفعل ذلك وكأنها تمارس امرا تحبه او تعشقه ، كان ذلك واضحا على صفحات وجهها المشرق بالابتسامة دائما ، وغمزت ليلى مشيرا الى ما نراه امامنا ، ولم يخف ذلك على عادل ، الذي انهى إفطاره عجلا معي ثم قبل شقيقته والتفت الى و (ليلى) .

ـ دايما احنا كده تقوم على خدمتي واسهر انا على راحتها ، الغربة علمتنا كده ، غربتنا في البيت عن أمنا وأبونا جعلتنا نعرف اننا محتاجين لبعض كده والا لا .. يا أحلى اخت في الوجود .

واغمضت ميرفت عينيها وشاع البشر والسرور في وجهها وهي تهز رأسها موافقة بصوت بلا كلام صدر منها وشفاهها مغلقة حتى لقد خلت انها ترسله من داخل نفسها .

ـ اشهد ان لا اله الا الله ..

نطقت والدتي بالشهادة حين فتحت الباب ايذانا بالخروج فما ظننت الا ان يطول الوقت أكثر وأكثر ، وانتظمنا في السيارة والدتي وليلى بالداخل ، اما (عادل) فقد فتح الباب لشقيقته (ميرفت) كأي جنتلمان ومسح على رأسها بحب ثم دخل خلفها لتكون بيني وبينه في المقعد الامامي .

وعلى باب المستشفى كانت تنتظرنا مفاجأة حيث وجدنا الخالة فاطمة تفترش سجادتها وتجلس القرفصاء وتداعب حبات مسبحتها ولعلها كانت فعلا تسبح الله وتدعوه ، فتلك عادتها حين تكون منفردة بنفسها .

ودلفنا جميعا ـ إلا عادل ـ متسارعين الى مدخل المستشفى،(ليلى) وميرفت امامي ، ولحقت بهما بينما ابطأ (عادل) كأنه يتردد في الدخول أو كأنه يوازن بين ما يجوز ومالا يجوز من التصرف ، ولعل ما يشغل بال والدتي حجب عنها رؤية الخالة (فاطمة) عند المدخل فلم تلحظها وبالتالي لم تلق التحية ، الأمر الذي أثارها وحملها على التنبيه .

ـ معذورة ، معذورة قلبك على نار يا قلبي ، لكن برضه رد السلام واجب ، يا هوه يا ناس ، يا داخلين سلمو على المنتظرين .

ولما لم تجد صدى لكلامها رفعت الخالة فاطمة صوتها بلهجة حازمة : بنت يا ميرفت ، وانت يا ام مختار ، ايه الحكاية ؟.

والتفتت ميرفت ، في الوقت الذي وصلت فيه بجوار الخالة فاطمة .
ـ (اهلا بالخالة فاطمة) .

قالتها ميرفت واياي في صوت واحد ، بينا كانت الوالدة قد اسرعت الى الداخل غير متنبهة .

ـ أهلا يا ولدي يا مختار .

قالتها الخالة فاطمة وهي تجمع اطراف سجادتها وتحاول القيام نهوضا لتشاركنا الدخول . وما ان استوت على قدميها المرهقتين حتى مدت انحناءتها لتقبل (ميرفت) التي تضايقت من هذه القبلة ربما لأن فم الخالة فاطمة كان قد خلا من الاسنان الطبيعية والصناعية ثم اتجهت بالحديث الي :ـ طمني يا مختار يا ولدي ، انا قلبي على نار ، قلبي ما طاوعني من الترحيم ، من قبل الفجر مع النجمة وانا صاحية ما صدقت النور شقشق ونزلت وانا اتدحرج من شارع لشارع ، يضرهم حقون (أصحاب) التكسي ، ولا واحد راضي يوقف لي ، وانا كل ما اشاور لواحد علشان يوصلني هنا الله يكافيهم على قلة ادبهم ، اللي يضحك مني ، واللي يتمقلت بي ، لكن لو كنت واحدة شابة والا حيلي منصوب وحاطة العباية النص نص ، والا لابسة بنطلون ، كان الف تكسي وتكسي وقف لي انا داريه كيف البلد فالته زي دول تاكسيات ، نهايته واحد راعي سيارة ونيت ، حن في خاطري ووقف لي ، ولما عرف اني رايحة للمستشفى نزل وركبني جنبه في السيارة ، قصدي ما خلاني ورا في الحوض ، اهه ودعيت له كم دعوة طيبة ، ولما وصلني لهنا وجلست انتظركم لما تشرفوا .

وأحببت ان اداعبها معاكسا .

ـ (طيب ، طيب يا خالة فاطمة ان ما قلت لعم (حسين) انت ركبت بجوار السواق من غير ما تعرفيه ، لو عم (حسين) عرف لا بد كان قتلك وقتل السواق .

ـ يووه يا مختار يقطع شيطانك .

قالتها بصوت مشروخ لا يخفي خفقة الفرح :

ـ دا كان زمان هوا عمك حسين فيه حيل الايام دى ، الزمن هد حيله .. دا ما يقدر يقتل دبانه والا يهشها .

ـ طيب انا رايح اقول الكلام دا لعم حسين .. انك تقولي عليه حيله مهدود ، ولا يقدر يهش الدبانة ؟.

وما ظننت انها تأخذ ذلك معي مأخذ الجد ، حيث امسكت بيدي .

ـ لالا .. اسمع لما اقولك ، ترى عمك حسين يزعل بعدين ، وبيني وبينك دا شيبوص ايوه شيبوص ، والله عليه مسكة ، وعليه قرصة ايوه ايوه شيبوص .

وعاودتها عادتها حيث ظلت ترد ذلك وتهز رأسها للأمام والخلف مؤكدة قولها . ووجدتني لا بد ان اقلد حركاتها حتى اتخلص من هذا الموقف وندخل المستشفى ، والا فسنظل ما شاء الله حيث نحن .. ولعلي اطلت الوقوف معها ، منتظرا ما يفعل (عادل) ايحضر ام لا ، ولم يحضر ، وتعمدت الا ادعوه واتركه لرأيه وما تمليه عليه مشاعره المختلطة ، وظل واقفا بجوار السيارة ، وأعطيت ذراعي للخالة (فاطمة) تتوكأ عليها ، ودلفنا الى الداخل ، وانطلقنا الهوينى ـ على قدر خطوات الخالة (فاطمة) والتي كانت تجاهد نفسها لتقارب خطواتها وتسارعها معبرة بذلك عن شوقها ، وتلهفها وعبرنا الممر الأول واتجهنا الى الممر الذي يؤدي الى غرفة مريضتنا . وطوال الوقت كانت الخالة فاطمة تهلل وتكبر وتدعو على عين الحسود فيها عود .

حتى اذا انتهينا الى حجرة (عفاف) وجدت زوجتي وميرفت تنتظران في قلق ظاهر ، اما والدتي فقد كانت صامتة بادية الاصفرار باهتة أديم الوجه وقد تعلق ناظراها بلوحة معلقة على الباب .

(ممنوع الزيارة مطلقا)

وأخذت اهدىء من روع والدتي مطمئنا إياها بأن ذلك اجراء ليكفل

للمريضة عدم الازعاج ، واكدت لها انني سأنطلق الى الدكتور (سامي) لأستوضحه الأمر ، و أخذ الأذن .

وقبل ان اسحب ذراعي من قبضة الخالة (فاطمة) كانت الممرضة المخصصة للسهر على راحة (عفاف) تفتح باب الحجرة لبعض شأنها ، واستوقفها منظرنا محتشدين امام الباب ، وكادت والدتي تندفع عبر الباب الذي انفرج ، ولكن بابتسامة مشوبة بالدلال ، وبعذوبة مشوبة بالحزم اشارت الى اللوحة التي تحظر الزيارة ، واشارت الى أن الدكتور (سامي) هو الذي امر بذلك وانه ينتظرنا بغرفته ، تلك تعليماته . وأخذت تتجه لبعض شأنها ، ولكن الخالة (فاطمة) لعله اعجبها جمال الممرضة وتناسق قوامها اتجهت نحوها وامسكت بها على الخصر بإحدى يديها وتتحسس الوجه باليد الأخرى .

ـ لكن يا حلوة قوليلي ، الهي يحرس جمالك من اللي ما يعرف له قيمة طمنيني (عفاف) كيفها .. كيف حالها ما اقدر ادخل عليها يا بنتي ، انا ست عجوزة ولا ينخاف مني .. انا زي الكادى ، يفرح ولا يآدى (يؤاذي) ..

ولعل الممرضة اعجبها تحسس جمالها وقامتها واعجبها اكثر لهجة الخالة (فاطمة) بطريقتها البريئة جدا والطبيعية جدا ، فأخذت تطمئن الجميع ان عفاف بخير حال ، وانها الآن نائمة نوما طبيعيا وقد تصحو بعد ساعة أو أقل . وطلبت منا الاتجاه الى صالون الانتظار او غرفة الدكتور (سامي) وكانت والدتي وليلى قد اتجهتا صوب غرفة الدكتور سامي ، وعادت الخالة فاطمة تتوكأ على ذراعي ثم افلتتها وضربت بكفيها على اسفل فخذها .

ـ آخ يا ناري ، من بنات ادى الأيام آخ يا ناري .

ـ ايه الحكاية يا خالة فاطمة .. جرالك ايه ؟!

كذلك سألتها متعجبا لتصرفها الفجائي المثير ، فتحولت تقف امامي وجها لوجه وأمسكت بطرف عنقي .

ـ اصلهم حلويين كثير يا مختار ، اخ يا ناري اخ حلويين كده .. ومقطقطين كده ومسمسمين كده ، يتاكلوا اكل هم .. هم .. هم ..

ـ قالتها بنبرات خيل الي ان فيها نوعا من المشاعر هو مزيج من العشق ومن الحسد ومن الافلاس العاطفي . ولم تتركني لتحليل مشاعرها ، ولكنها عادت وأمسكت بطرف عنقي :« تصدق يا مختار يا ولدي آه آه زمان انا كنت كده زي البنت الحلوة دى ، كنت زيها واحلى كمان ، ايش حلاوة وايش قوام ولا غصن لبان ، وايش غندورة ايوه انا كنت غندوة .. حتى عمك حسين اول ما شافني داخ يا عيني عليه » وحاولت ان تفرد قوامها ولم تسعفها انحناءة ظهرها فعادت لممارسة استجرار الماضي .

ـ اول ما وقعت عينه علي ليلة الدخلة داخ يا حبة عيني .. ايه كان زمان ، موزى دحين ، عينه والعياذ بالله لا يجه في راسه ساعة ما يسمع والا يشوف ستات عندى ، ايوه ، ايوه يا مختار يا ولدي ...

وعاودتها نوبة هز الرأس خلفا وأماما عند تأكيد الحديث واضطررت لمجاراتها بهز رأس . ولعله كان منظرا مضحكا لي واياها ونحن نحني رأسينا كمن نتوافق على امور لسنا مختلفين عليها .

ثم امسكت ثانية برقبتي تشدها اليها ، وتلك عادتها حين توحى لمحدثها او مستمعها بأن ثمة أهمية خاصة لما يأتي .

حين قالت : بيني وبينك يا مختار يا ولدي ، هو انا ليش دايما طول الايام اخرج هنا ، وأروح هناك ، أيوه ليه ؟. اقول لك انا علشان ما ابغى الستات يجوني في البيت ، علشان عمك حسين متستت في البيت .. ولما يجوني الستات ، زي اللي يصيبه حال وعينه تلوج في راسه ، قلت يا بنت لا .. الباب اللي يجيب الريح سده واستريح. لكن عم حسين يا دوبه يتحرك وينهج وهو يمشي دا ما عاد فيه حيل ..

كذلك اخذت اعاندها ونحن في طريقنا نتحدث .. ولكنها امسكت بي مرة اخرى .

ـ مين قالك ؟؟ دا شيبوصي وبيني وبينك دا والطبع غلاب .. كل الرجال كده عيونهم تصير لايحه في روسهم لا تقول شباب .. ولا تقول عمك حسين اسألني أنا ، يا مآمن الرجال يا مآمن الميّة في الغربال ، الا عمك حسين شاويني والمثل بيقول : يموت الزمار واصباعه يلعب ، اهو عمك حسين كده ، لحد ما يموت واصباعه يلعب .

ـ بيلعب في ايه ؟؟ احببت معاكستها ، ولعلها اساءت فهمي فسلت يدها من يدي ، واصدرت من فمها صوتا متأففا ، واندفعت وانا خلفها اضحك ملء شدقي ، حتى اذا وصلنا الى غرفة الدكتور (سامي) وجدتها مفتوحة حيث سبقت الوالدة (وليلى وميرفت) واستقبلني الدكتور (سامي) فاتحا ذراعيه ثم مجيبا الخالة فاطمة .. وانتقل بنا الى غرفة مجاورة لمكتبه جرت العادة ان يجعلها للاجتماعات .

وأخذ يطمئنا ويشرح لنا الحالة وكيف قضت المريضة ليلة قلقة ولكنها مع تباشير الفجر فارقتها حالة القلق النفسي وأخذت في نوم عميق منذ اربع ساعات .. وفي انتظار صحوها ، رأى الدكتور الا يزعجها شيء لتعود الى الصحو بصورة عادية .

ولعلنا في اجتماعنا بالدكتور سامي اخذنا منه الكثير من الوقت ولم يكن ذلك وقتا ضائعا حيث انصرف اكثر في توضيح الحقائق للوالدة التي اطمأنت كثيرا كما بدا على صفحة وجهها .

وفجأة أضاء ضوء اخضر حيث كنا نجلس فنهض الدكتور سامي بادى العجلة وخرج الى غرفته المجاورة ، وبعد دقائق عاد يستدعينا جميعا الى غرفته ، واتخذنا مجالسنا فأشار الى جهاز المونيتر فاذا بنا نشاهد عفاف جالسة

على سريرها وقد تدلت ساقاها ، وكان عادل يجلس بين ساقيها يقبل ركبتها او لعله يدفن رأسه بينها في حين كانت تمر بيديها فوق رأسه وتخلل أصابعها بشعره الكستنائي .

وضغط الدكتور سامي على ازرار بجانبه محدثا غرفة التحكم (اعطيني الصوت من فضلك).

وانبعثت من الجهاز ضحكات مجلجلة وفتحت الأم ذراعيها ليرتمي فيهما عادل ابنها وشدته الى صدرها واستلقت على السرير في راحة عارمة .

ـ الحمد لله على سلامتك يا ماما .

ـ الحمد لله على رجوعك انت يا حبيبي .

وكعادتي وحبي للمواقف الانسانية والحوار الانساني وجدتني مشدودا الى الشاشة أتابعها بعيني وأذني حتى لقد كدت أنسى اين نحن وفيم نحن هنا ، وامتدت يد الدكتور (سامي) لتقفل الجهاز ، ونهض يدعونا لمصاحبته لزيارة عفاف ، حتى اذا ما وصلنا طرق الباب مرتين ثم دلف ونحن من ورائه لنرى عادل وقد لف يسراه حول امه ووجهه يرتكز على شعرها الفاحم ، وكانت (ميرفت) اسبق الجميع الى امها ، ولعلي لا أمانع لو قلت انها ـ ميرفت ـ دخلت في امها ، فقد ألقت بنفسها عليها ثم اخذت تلتصق فيها ، وئيدا وئيدا واخفت وجهها في عنق امها ، وعلى هذا الوضع جاءت الوالدة فضمت الاثنين معا ، ولم تستطع الوالدة ان تتفوه بكلمة ولكنها تركت لدموعها اولوية التعبير.

ومن الخارج كان صوت الخالة فاطمة يرتفع يبحث عنا: يقطعني انتوفين يا مضروبين .. سبتوني ورحتوفين ؟. صحيح من لقى احبابه نسي اصحابه .. ما هو انتم برضه حبايبي .

ولعلنا كنا قد اسرعنا للهفة لقاء عفاف فتركنا الخالة فاطمة التي لم تستطع اللحاق بنا لما اسرعنا .

واسرعت الى الخارج لأجدها عند الطرف البعيد من الممر المؤدي الى حيث نحن ، وهي تسرع الخطى فكأنها تتأرجح يمنة ويسرة وكدت اسرع للأخذ بيدها ، ولكن ظهور الممرضة السابقة وهي تعبر الممر في الاتجاه العكسي قد كفاني ذلك ، اذ ما أن رأتها الخالة فاطمة حتى امسكت بها من خصرها اللدن تسألها :

ـ يا حلوة ، يا حلوة من فضلك قوليلي راحوا فين ..

وأدركت الممرضة سؤالها وقد عرفتها من الموقف السابق فابتسمت في عذوبة وانحنت في دلال لتقترب من الخالة (فاطمة) واشارت بأصبعها الى نهاية الطريق حيث اقف على باب الغرفة ، ولكن الخالة فاطمة لم تشأ ان تترك فرصتها هذه .

ـ لا وحياة اللي خلقك على الصورة دى ، وحياة اللي كملك بالشباب والجمال والحلاوة ما تسيبيني لحد ما توصليني لعندهم ، انا حيلي انهد من الجري ، هاتي يا حبيبتي عكزيني لحد هناك ..

وفي صبر وأناة وطاعة صحبتها الممرضة ، ولكن الخالة فاطمة كانت تبطىء سيرها لتكسب وقتا اطول في مصاحبة الفتاة ، حتى اذا وصلت وأوشكت الممرضة ان تخلص نفسها من قبضة الخالة فاطمة ، التفتت اليها الخالة ، وكنا نظن انها سوف تشكرها على حسن صنعها ، ولكن كانت مفاجئة في نكتة تدل على تخريف الخالة فاطمة حيث قالت :

ـ اقولك يا بنتي الله يرضي عليكي ، ويحفظ عليكي دى الحلاوة ودى الغندرة ، ايه رأيك ترجعيني لمحل ما كنا ، وأجرب انا امشي وحدي ؟!.

ـ حاضر ، يا خالتي بس اخلص الشغل اللي في ايدي وارجع وأنا تحت امرك نروح ونجي زي ما يعجبك . وبهذه الطريقة استطاعت الفتاة ان ترضي الخالة فاطمة كما استطاعت ان تخلص نفسها .

وانبرت الخالة فاطمة لمعاتبتنا في تركها وحدها تتخبط في طرقات المستشفى ثم انبرت تخاطب عادل : ـ وانت متى جئت .. وكيف دخلت هنا ؟. بسم الله الرحمن الرحيم .. واستطرد الدكتور سامي بإذن مين دخلت والغرفة مكتوب عليها ممنوع الزيارة .. واقترب عادل من والدته لدرجة الالتصاق قائلا :

ـ مافيش قوة تبعدني عن امي ..

ولقد كان لهذه الاجابة فعل السحر في نفس (عفاف) كما لو انها تناولت كل جرعات السعادة والأمل دفعة واحدة ، والتقت عينا والدتي بعيني عفاف وتبادلتا حديثا طويلا بعيونهما كان خاتمته ابتسامة من كليهما .

ودخلت الممرضة الحسناء لتكون تحت طلب الدكتور ، فانتفضت الخالة فاطمة واقفة واتجهت نحوها لعلها تتجاذب معها حديثا وتسألها : ها قلت ايه ؟؟ نروح لمحل ما لقيتيني وانا آجي وحدي ..

وضحكت الممرضة وعرضت على الطبيب ورقة ، فهز رأسه ايجابا ، ثم طلب منها ايصال اجهزة القياس والفحص بعفاف ، وطلب من غرفة المراقبة التسجيل على المونيتر ، وظهرت على شاشة المونيتر دلالات علمية لها عند الطبيب معناها ، وظهرت علامات الارتياح والبشر على وجهه .

ـ مبروك يا جماعة ..

ـ والتفت يربت على عفاف ـ (والف حمدلله على سلامتك واياكي تعمليها تاني) ..

ـ «يعني ماما تقدر تخرج معانا للبيت يا دكتور ؟».كانت ميرفت هي التي تسأل وقد تعلقت بذراعه فقبلها قائلا : طبعا تقدر تخرج معاكم بس على شرط ماتناكفوها وتتعبوها ، ثم التفت الى عفاف .

ـ على فكرة انت يلزمك راحة اسبوع من غير ارهاق ولا خروج ولا عمل وظيفي ولا حاجة ..

ـ خلاص ، راحة على طول يا دكتور ، ووظيفتي هي البيت واولادي .

وفجأة انطلقت غطريفة مصدرها الخالة فاطمة ، اما الوالدة فقد رفعت اكف الضراعة الى الله قائلة : (ياما انت كريم يا رب) بينما التحمت ميرفت وعادل في عناق أخوى حار ، واتجهت الى ليلى وكانت قد همست لي بعينيها دلالة على الاستحسان للرأي هذا ، فهمست في اذنها : « ما تجي نعمل زي ميرفت وعادل ».فأبعدتني برفق وقد لاحظت الممرضة ذلك فأخفت ابتسامتها .

وفيما نتهيأ لانجاز امر خروجها ، وفي غمرة الفرحة دخل محمود بادى البشر فبادرته والدتي :

ـ انست يا أبو عادل احنا كنا جايين لك البيت مع عفاف .

ولست ادري هل كان قولها ذلك تأنيبا له على تأخره ، ام هي مشاعر الحماة لتناله من غريمها ؟! ولكنه دافع عن نفسه قائلا :

ـ اصل انا رحت العمل بتاع عفاف علشان اقدم لها معروض واطلب لها اجازة مرضية ، وتعرفي يا عفاف ـ واتجه نحوها ـ وقبل جبينها واستطرد : ولقيت احسن مفاجأة وجبت لك اعظم بشرى ، تعرفي ايه ؟؟ تعرفوا ايه يا جماعة .

وانتظر اجابة اى منا بلهفة او حتى بدونها ، وانتظر ان نسأله ايه يا ترى ، ولكن احدا لم يفتح فمه .

ـ ايه يا جماعة ما تسألوا في ايه المفاجأة وايه البشرى ، مالكم كده مبلمين ؟؟

ـ قول يا ابني وخلصنا .

قالتها والدتي ببرود وشعور بالضيق وساندتها الخالة فاطمة ـ ايوه يا ولدي قول ، قول وفهمنا ولا تخلينا كده معلقين ولا انت كنت جبت راس (كليب) ..

ـفكرتيني بحرب السويس يا خالة فاطمة ، انت حضرتيها على ما اظن ؟ احب محمود ان يغيظها دلالة على تقدمها في السن ، وقد غاظها فعلا حيث

قالت بأسى ـ (انت طول عمرك عفش حتى في مزاحك نهايته قول البشارة ولك عندي حلاوة بتاسا . (نوع قديم من الحلوى المحلية)

ـ البشارة يا ستي والكلام للجميع اني رحت زى ما انتم عارفين اقدم اجازة مرضية لعفاف لقيت مدير شئون الموظفين بالمصادفة هنا وبلغنـي ان الادارة العامة اصدرت قرار بترقية عفاف الى درجة مدير عام مع صرف راتبها بأثر رجعي اعتبارا من ٣/١ ، واحنا في شهر ٦ طبعا من فرحتي نسيت اقدم طلب اجازة مرض واخذت صورة القرار وجبته معاي اهه .. مبـروك يا ام عادل .

ولعل السيد محمود قد أصيب بخيبة أمل كبير حيث أن احدا من الموجودين لم يبد أي تحمس او فرحة بل ولم يتقدم احد بالتهنئة لعفاف بالترقية . وشعر محمود ان شيئا ما قد حدث ، فأخذ يهز يده اليمنى حاملة صورة قرار الترقية .

ـ ايه يا جماعة مالكم كده مبلمين والله بأتكلم جد والخبر صحيح .

وفجأة أصيبت ميرفت بنوبة قيء ، وتلك عادة فيها اذا لم ترض عن أمر لا تملك نجاحه ابداء رأى فانها تصاب بنوبة قيء . وادرك عادل ذلك فتلقاها بين يديه بحب وحنان حملها الى الحمام لتفرغ ما في جوفها احتجاجا على ما جاء به أبوها .

ونهضت من سريرها عفاف لتلحق بابنتها وهمست في اذنها وأخيها عادل بما اشاع الرضى في نفسيهما واعاد ميرفت الى طبيعتها .

وأخذت عفاف تلملم حاجياتهـا ، وأخـذت ميرفـت وعـادل يساعـدان وينجزان ، ثم التفتت الى محمود .

ـ أنا لا أزال مريضة وتعبانة ويلزمني راحة في البيت وبعد ما أرتاح في البيت نتكلم في الموضوع .

ـ على راحتك يا عفاف .

قالها محمود ، وكأنه يسمع نغمات نشاز ، ووجدتني اقترح عليهم الانتقال لبيتي فترة الاسبوع الراحة حتى لا تشغل عفاف نفسها بأعباء وخدمة البيت ، ولكن عادل وميرفت عارضا بعنف وشدة وقالت الوالدة :

ـ خلوها ترجع لبيتها واولادها،واذا كان على البعد والراحة انا أروح معاها وأساعدها .

ـ وه .. وه .. وانا كمان يا حبيبتي انتي نسيتيني والا ايه ؟ عفاف من صغرها وهي حبيبتي ايوه ، انا كمان آجي معاكم واهه اطل شوية على عمك حسين وبقية الوقت معاكم ، وظلت الخالة فاطمة تردد ما تقول وقد عاودتها نوبة الاهتزاز : ايوه المساعدة واجبة بين الجيران ، ايش حال الاحباب اللي زينا ايوه .

وكان من الممكن ان يتعطل موكب خروجنا لولا ان تدارك عادل ما نسيناه جميعا فأخذ يهز رأسه امامها خلفا واماما واسفل وأعلى .

ـ صحيح .. ايش حال الاحباب اللي زينا ايوه .

وهنا ارتاحت الخالة فاطمة واطمأنت الى ان اسلوبها في الحياة يمارس بلا مخالفة بل وبكل مطابقة .. وبعد الانتهاء من اجراءات شكلية كنا نقسم انفسنا بين سيارتي وسيارة محمود صوب بيت عفاف .

الـــدَّوامَـــة



من المؤكد أن كل شيء قد اصبح جديدا - في المضمون - داخل بيت (عفاف) ، (ميرفت) اصبحت اكثر نضارة وبشرا ، وكأن السعادة تزهر داخل جسمها الفتى ، وما كانت كذلك من قبل .

عادل عاد انسانا رقيقا يقطر رقة وعذوبة مع كثير من الرضى ، وفارقته مسحة الحزن التي كانت أحد معالم وجهه ، البيت ذاته اصبحت فيه واضحة لمسة الأنثى ، في كل جانب منه ، وفي كل زاوية وركن ، ومن قبل كان اشبه ما يكون بقطعة من صحراء ، واصبح الآن يموج بهذه الاشياء التي نحسها والتي تعلن عن وجودها دون ان نستطيع ان نلمسها ، هذه الأُشياء التي تحدثت عنها الوالدة من قبل وكنت اظنها نوعا من التوجيه فاذا هي حقيقة ، احسسنا بها حين تواجدت بعد فقدان وغياب .

عفاف اصبحت انسانا آخر تماما ، فارقتها عصبيتها التي عرفناها فيها وعادت انسانا دمثة الأُخلاق يحس المرء بنعومتها ولطافتها اذا مرت بجانبه ، أصبحت تهتم لكلشيء وبكل شيء، فارقتها روح اللامبالاة ، وكان من أهم معالم التغيير في شخصيتها ، لمسة الخوف التي تستولى على تعبير وجهها ،

اصبحت وكأنها خائفة من شيء ما ، اذ كأنها رأت شيئا يتمثل امامها بين كل آونة وأخرى ، تخافه او يبعث فيها الشعور بالخوف او بالوجل على التعبير الدقيق .

وانتظم عقد العائلة ، فقد قررت الوالدة الاحتفال بمرور اسبوع على خروج عفاف من المستشفى ، وكان الاحتفال مقتصرا على افراد العائلة والاقربين من الاصدقاء والجيران .

ـ على فكرة يا عفاف ـ ابتدر محمود الحديث موجها لزوجته ـ ناويه تعملي ايه بالنسبة للترقية إللي اخذتيها ؟. انا بيتهيأ لي نروح نزور المدير العام في بيته ونقدم له الشكر والامتنان .

ـ وهو دا وقته يا محمود يا ولدى .

اعترضت الوالدة قبل أن تأخذ رأى عفاف ، لعلها خشيت مضاعفات الأمر او تطور نقاش بين الرفض أو الايجاب . ولكن عفاف بحزم اجابت :

ـ ايوه يا ماما ، هودا وقته .. ليه لا ؟. والتفتت الى محمود : حكاية اننا نروح نزور المدير العام انت عارف اني لسه في دور النقاهة فبلاش حكاية الزيارة ، ثم نزوره ليه ، ونشكره ليه ؟ الدرجة وأنا استحقيتها فعلا ونظاما دى نقطة ، والنقطة الأهم اني انا قدمت استقالتي رسميا امس وطلبت قبولها لعذر وجيه جدا ، وهو انني قررت ان اتفرغ لأدارة بيتي ، انا المفروض اني مديرة عام الشئون الداخلية لمنزلي ، رايحة اتفرغ لميرفت وعادل وبس .

وأنهت الجملة بنبرة قاطعة تدل على اصرار وعزم مقصود وكان لذلك وقع متعدد الصور ، حيث بهت محمود وكأنه يسمع كلاما غير عادي ، او تصرفا غير عاقل ، اما ميرفت وعادل ، فقد إحتضنا بعضهما وقبلا بعضهما ثم اندفعا نحو عفاف يمطرانها قبلات اما الوالدة فقد رفعت راحتيها نحو السماء داعية ومباركة : (يا ما انت كريم يا رب) .

ـ لكن ايه اللي خلاكي تعملي كده .. بعد خدمة طويلة ، وبعد ما وصلتي لدرجة كبيرة .. انا مش فاهم لازم اكيد حصل عندك حاجة اكيد في غلط في الموضوع .

كان هذا التصرف من محمود ، محل رفض من الجميع كما بدا في اعينهم ، وكان المنتظر غير ذلك ، فقد كنا نتوقع ان يبارك هذه الخطوة .. فأي رب بيت ما كان ليسعده شيء كسعادته حين يرى زوجته وام عياله ، تتفرغ لبيتها تخصه بكل امكانياتها .

ولعل الوالدة لم تستطع قبول موقف محمود ، فقالت بصوت متهدج .

-(هو ايه دا يا محمود يا ولدي ؟ انتو جرالكم ايه يا رجال الزمان دا ؟ عفاف بتتكلم صح موكفاية اللي جرى ؟! الله يلعن الفلوس ، وما ضربت في النفوس ، يعني علشان الفلوس والراتب والمعاش تسيب البنت بيتها واولادها ، دى الست فينا وظيفتها هي بيتها وأولادها وجوزها ، ياكده ياما تكون ست .. تكون حاجة ثانية ، لا حصلت راجل ولا حصلت ست ، وعلى رأي المثل « ما فلحت تنظف بيتها ، راحت تنظف بيت الجيران ».

ـ لا يا حبيبتي ، حاسبي في كلامك ، بيت الجيران نظيف ولا ناقصه حاجة..

كانت المعترضة الخالة فاطمة : «وحياة اللي يحفظ عمك (حسين) انه بيتي نظيف وتكبي العسل وتلحسيه ايوه ، خدى بالك واتكلمي بعقل » .

وكان هذا الاعتراض منها مثار ضحك من الجميع ولعل ما اضفته الخالة فاطمة من روح الفكاهة ساعد على امتصاص الفعل ورد الفعل في حديث الوالدة .

-بس بدى أعرف ايه اللي خلاكي تتصرفي التصرف كده فجأة ومن غير ما اعرف أو من غير ما نتبادل الرأي ؟

ومرة أخرى كان لموقف محمود وقع الاشمئزاز واتجهت عفاف اليه بالحديث قائلة :

ـ اللي انا عملته دا ، صح والاغلط اذا كان غلط قل لي فين الصح ؟ وليه دا غلط ؟ واذا كان هو الصح تعترض ليه ؟ انا شُخصيا شايفه ان دا هو الصح ، وكل اللي فات كان غلط في غلط في غلط ، انا متأكدة من كدة الف في المية .

ـ «طيب» وفكر محمود وفرك كفيه : ايه اللي خلاكي متأكدة الف في المية .

وكأنما خيم على جو الاجتماع روح من التحدي او الصراع فجره محمود وارادت الوالدة ان تحول دون تطور روح التحدي هذه قائلة :

ـ يا جماعة احنا هنا الليلة علشان نفرح ونحتفل بسلامة عفاف والا تبغوا تديروها مناقشات من غير لازمة ؟

ـ «صدقيني ياماما».. قالتها عفاف بكل روح الهدوء والاتزان ، وليس في صوتها اي اثر لغضب او تعاسر ـ صدقيني يا ماما انا مبسوطة كده ، ودى الفرصة اللي انا كنت انتظرها ، والتفتت الى محمود ثم للجميع :

ـ أنا متأكدة الف في المية ، لأني بعيني دى ، شفت حاجات ما كان ممكن اشوفها ، شفتها وأنا نايمة في المستشفى ، شفتها وانا غايبة عنكم ، انا ما كنت فاقدة الوعي ، ولا كنت مغمي علي بالعكس انا كنت في رحلة العمر ، رحلة الكشف ، انكشف لي المغطى واللي كان مستور ، تعرفوا شفت ايه ؟

وكان لعمق صوتها وحرارة لهجتها اثر كبير حيث ران صمت كثيف ، حتى لقد خيل الي انني اسمع دقات قلوب الموجودين ، وتعلقت العيون بشفتي عفاف وتحول الوجود الى آذان تخشى ان يفوتها ما تقوله (عفاف) ..

ـ شفت عادل وميرفت ايديهم في إيدين بعض ماشين في طريق صحراوي ، وانا اتابعهم وفجأة اختفوا عن عيني رحت أجرى وراهم ، لقيت نفسي

سقطت في بئر ، او في مجرى اسطواني عميق ، ودوامة تسحبني لتحت وكل ما أحاول امسك بأي شيءألاقيني انزلق والظلام يزداد كثافة وأنا انادي، يا عادل . ..ولا يرجع غير صدى صوتي لوحدي ويزداد الظلام كثافة ، وفجأة تظهر نقطة مضيئة ، نقطة ضوء ازرق باهت لكن شدة الظلام تجليها كأنها تتوهج ، وتتحول النقطة المضيئة الى دائرة مضيئة ، وتتحول هذه الى دوائـر مضيئـة متداخلة في بعضها كلما اقترب منها وتصبح كأنها دوامة ضوئية ألاقي نفسي هاربة من الظلام في اتجاه دوامة الضوء وفجأة تتوقف حركة الدوامة الضوئية وتتحول الى شبك هائل من نسيج يشبه نسيج العنكبوت ، بس من الضوء وألوانه زاهية ومتداخلة ومن وراء النسيج تلوح اشباح تتحرك في اكثر من اتجاه . وفجأة يتهشم النسيج الضوئي مصدرا صوتا مخيفا وتظهر شارة اشبه بستارة المسرح، ترتفع حبة حبة ، درجة درجة .

وتتضح المعالم واذا بي اشوف نفسي انا عفاف بس الزمان غير الزمان ، عفاف من عشرين او خمسة وعشرين سنة وأكثر ، حاجة عجيبة جدا ، انا الآن زي ما أنا وكنت واقفة ، باشوف نفسي كنت بأعمل ايه من عشرين او خمسة وعشرين سنة ، يعني كنت واقفة اتفرج على احداث الماضي اللي انا عشته ، ومع الأسف شفت حاجات كنت اعملها كلها غلط في غلط ، ولما يكتمل المنظر وينتهي الموقف ، تنزل الستارة ، ويعود نسيج العنكبـوت ثم الدوامة الضوئية وتتقلص حتى تصبح نقطة مضيئة ، ثم يعود الظلام الكثيف مرة اخرى ، واعود الى الانزلاق في المجرى المعتم ، وكأنما قدماى تخوضان في رمال متحركة أو طين لازب ، وبين فترة وأخرى تعود نقطة الضوء ويتكرر المنظر وأرى نفسي في مكان آخر وزمان آخر وأنا امارس خطأً آخر ، لم أكن اجده حين فعلته خطأً ، ولكن الآن وأنا خارج الزمن وخارج الاطار العادي ، وأنا اشاهد مجسدا هذا الذي فعلته آنذاك أجده خطأً محضا ، واجده ظلما وافتراء على الآخرين ، واجدني ظالمة لنفسي .

شيء عجيب هذا الذي يحدث ، اكون أسيرة في المعبر المظلم انزلق رغما عني ، واتوقف رغما عني واشاهد احداث الماضي ـ الخاص بي ـ كل ما عملته من سوء ومن خير اشاهده محضرا امامي ، وأحكم بنفسي على نفسي .

يا سلام يا ماما !

والتفت الى الوالدة وامسكت بيدها تقبلها وكانت تتصرف وكأنها خارجة لتوها من مشاهد الماضي البعيد . فقد كان العرق يتفصد فوق جبينها ولم تكن تشعر به رغم ان الجو لم يكن صيفا بل باردا نسبيا ، واخذت يد والدتها تقبلها وكأنها تستغفر .

ـ يا سلام يا ماما ، قد ايه غلطت في حقك تصوري يا ماما ، لما كان عمري ثلاثة عشر سنة ـ وكأنما انتقلت عفاف الى مشاهد الماضي فقد تركزت عيناها الى شيء لا نراه ، وظلت عيناها لا تتحركان ولا ترمشان وكأنها تحجرت حتي بريقهما فارقهما ، ولا اخفي انه قد علاني نوع من الوجل او الخوف ، ذلك ان عفاف كانت تمارس عملية انتقال من وجود بيننا الى لا وجود ، ثم تعود مرة اخرى . من المؤكد ان شيئا خفيا وقوة خفية رهيبة كانت وراء ما حدث ، شيء من العالم الغير مرئي كان قد استحوذ عليها ، واستطردت وهي مركزة نظراتها على هذا الشيء اللامرئي .

ـ بالضبط كان عندي ثلاثة عشر سنة ، فاكرة يا ماما ، انا كنت لسة راجعة من المدرسة ، وكنتي انتي جالسة على مكينة الخياطة ، يادوبك كملت خياطة مريول المدرسة .. ووقفتي بفرحة علشان تقايسيه علي ، لكن الروبه كانت مايلة والياقة نازلة شوية ، سامحيني يا ماما ..

قالتها دون أن تنظر الى والدتها وما زالت نظراتها مركزة على هذا اللامرئي .

ـ بدل ما ابوس ايدك واشكرك واقول لك على ملاحظاتي رحت مزعقة وانفجرت وخلعت المريول وقلت بقلة ادب ، ايوه بقلة ادب ، قلت لك ما كان خلينا خياطة محترمة تعمله بدل الشغل المبهدل دا ، كان قلة ادب مني يا ماما ،

بدل ما كنت اشكرك وأبوس ايدك ، اتصرفت بشكل قلب فرحتك حزن ، وشفت الدموع من عينك يومها . وانتقلت عفاف مرة اخرى الى وجودها بيننا بعد أن فرغت من رواية احداث الماضي : فاكرة يا ماما ، اهودا حصل بالتفصيل وشفته بعيني الاثنين اللي راح ياكلها التراب . وانت يا محمود ياما خنتك في حقوقك ..

وكان لكلمة الخيانة وقعها المزعج على الكل ، ولكنه كان رهيبا على محمود ، فقد اتسعت حدقتاه ، وسقط فكه الاسفل ، وتدحرجت نظارته فوق انفه ، اما عادل وميرفت فقد امسك كلاهما كل بيد الآخر واتجهت عفاف الى زوجها ممسكة بكلتا يديه ، وعاودتها نوبة النظر الى اللاشيء او اللامرئي وتحجرت نظراتها .

ـ لا يا محمود ، كنت اخونك في حقوقك ، الوقت اللي فات دا كله ، كان حقك وكنت أنا اعطيه لغيرك ، انت وعادل وميرفت ، كنت اخرج كل صباح للعمل وارجع الظهر تعبانه حيلي مهدود . اعصابي متوترة ، اطلع الأكل من الثلاجة ، أكل بايت وأسخنه ، واجلس انت وانا نتغدى ، العيال كانوا اتغدوا ، الدادة اكلتهم وغيرت لهم ملابسهم ، كانت تحل لهم مشاكلهم ومتاعبهم وكانت لهم افراحهم ، عملوا ايه في المدرسة ، وناكفوا الاستاذ ، كل الحاجات كانوا يحبو يقولوها ويحكو تفاصيلها ، وانا ما عندي وقت اسمع لهم ، واتنرفز وأصرخ فيهم ، مع ان دا حقهم ..

.. انت ما كنت تشوفني الا في ملابس العمل ، او ملابس البيت . وفي عطلة نهاية الاسبوع لما نحب نروح نسهر عند بعض الاصحاب والمعارف كنت اتذوق والبس احسن ما عندي واعمل احسن ماكياج ، نظراتك يا محمود .. كنت بتاكلني ، بنظراتك كأنك تشوفني لأول مرة ، دا كله كان علشان مقابلة الناس ، وكنت انت احق به من كل الناس ، دا كان غلط ، وشفته بعيني ،

وحكمت بنفسي ان دا غلط ، دا خيانة ، كنت بأصرخ وانا اشاهد المنظر امامي ، كنت اصرخ في عفاف ، اللي شايفاها قدام عيني واقول لها خيانة ، خيانة !!

واسترخت عضلاتها وعادت مرة اخرى الى الوجود ، واتجهت الى ميرفت وعادل تضمهما : سامحني يا محمود ، سامحني يا عادل ، سامحيني يا ميرفت . وترقرقت الدموع في عينيها ، وكأن الجو العائلي فقد نضارته وسادته روح من الكآبة والخوف والوجل وكان لا بد من معجزة مماثلة تنقلنا من ثقل هذا الجو الى جو آخر .

فقد كان الاجتماع احتفالا بخروج عفاف من المستشفى ، ولكنها بذكر هذه التفاصيل نقلت الجميع الى الخوف من المجهول ومن الماضي وما اقترفت ايدي الناس .

ـ لاه ، انت يا حبيبتي الا جالك شي ، دستور بسم الله الرحمن الرحيم ، دستور اشتاتا اشتات ، هاتي يا حبيبتي ما عندك في البيت مجمرة والا منجرة ، انا معايا في الكيس هنا في القلص عندي الفا سوخ والفكك والفكوك ، هاتي المبخرة وانا ابخّرك واطرد عنك اللي ما يتسمو .

كان ذلك صوت الخالة فاطمة وهي تحاول ان تطرد الارواح الشريرة التي ظنت انها اصابت عفاف ، وكان لما قالته فعل السحر في تبديد جو التوتر الذي كان سائدا ، والذي ما كدنا نخرج منه ، حتى اعادنا اليه كلام عفاف .

ـ لا ، لا ،

بلهجة حازمة ونبرة صارمة قالتها عفاف ، ولم نكن نعهد بها تلك الصرامة المطلقة ولكنها فعلا تغيرت بعد حادثة المستشفى الى نقاط كثيرة متناقضة عما قبل ، واستطردت : لا يا خالة فاطمة ، لا اسياد ولا عفاريت ، ولا ارواح شريرة ، ما عفريت ولا شرير الا احنا يبني آدم ، احنا نعمل عمايلنا ، ونعمل كل سوء وكل خطأ ونحاول نعطيه مبرراته ، ولما يتضح

لنا غلطنا نقول ، ابليس والشيطان مع ان الواقع انه هوه نفس انا شفت دا بعيني الاثنين ، انت وانا وهو وهي ، كلنا في داخلنا نزعات شريرة لو تركنا لها الحرية تظهر ومارسناها ، كنا اصبحنا وحوش لكن الدين والعقيدة هي اللي جعلت حاجز ولجام للنفوس البشرية ، ربنا بيقول « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وتهدج صوتها ، وأخذ صدرها يعلو وينخفض ، وخشينا أن يصيبها بعض أذى لولا ان تدخلت الخالة فاطمة حيث تقدمت نحوها ووضعت راحتها اليمنى فوق صدرها:(إلا ، إلا والله صادقة يا حبيبتي ، بني آدم اسود رأس وياما حياتنا وافعالنا صادقة فيها كثير ما يرضي الله ولا خلق الله ، يا بنتي ربنا يهدي ما خلق ..

ـ هيا ، هيا قومي بنا ، قوموا يا هو هاتو العشاء وخلونا نقرقر ونضحك وافتحوا لنا التلفزيون ، فينك يا ليلى ؟

ـ انا هنا يا خالة فاطمة ، كله جاهز .

قالتها ليلى وكأنما تعمدت ان تعطي نبرات صوتها لمسات مخملية فقد جاء صوتها مصفى وكأنه موجه لقلوبنا جميعا ، ومختار عامل لكم مفاجأة حلوة ، جايب معاه في السيارة مكينة السينما وفيلمين عربي وافرنجي .

ـ«هيه ، برافو خالو»ـ كان ذلك صوت ميرفت، وقد صفقت بيديها ثم قفزت الى صدري تقبلني ـ«انزل معاك يا خالو اجيب «الافلام»، تعالى يا عادل»، ووجهت .. حديثها لأخيها ومدت له يدها ليصحبها : تعال نساعد خالو .

وامتدت السهرة حتى ساعة متأخرة من الليل ، وقبل الانتهاء ، كأنما ارادت عفاف ان تدخل فرحة خاصة على قلب ميرفت وعادل حيث طلبت مني ان امر غدا عصرا لأصحبها وعادل الى حيث تقيم الدادة لتصحبها الى

البيت لتقيم معهم اقامة دائمة ، « وسوف نهيء لها غرفة خاصة لتقيم كأحد افراد العائلة جزاء ما قدمت من حب ورعاية لعادل وميرفت ».

ولأول مرة أرى السعادة في عيني عادل والفرحة غامرة ، فقد انطلق الى امه ، احتضنها ثم رفعها بكلتا يديه الى اعلى وظل يداعبها وهي معلقة بين يديه وكأنهما عاشقان يعبثان ، انزلها الى الارض وكأنه يحرص علي شيء ثمين يخشى ان يكسر ، وقبلها بين عينيها قائلا :

ـ من الليلة يا ماما ، انا وميرفت ما راح ننام حتى نوضب وننهي غرفة دادا دي هيا ماما الثانية .

ـ «وبعدين، انا رايحة أغير منها على كدة»ـ قالتها مداعبة وقد ضمت كلا من عادل وميرفت الى جانبها ـ « يا لله بنا الى العمل ».

وافترقنا على أمل اللقاء غدا . وبقيت الوالدة والخالة فاطمة معهم . وكان الليل متأخرا ولكن كنت استنشق عبير شيء جديد في بيت عفاف ، هذا الشيء الذي نحسه ولا نلامسه وان كان هو يلامس مشاعرنا: انه التسجيد الفعلي لمعنى كلمة السكن التي ذكرها الله في كتابه : « ومن آياته ان جعل لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ».

كان الشارع خاليا فالوقت بعد الثانية صباحا ، وفتحت لها باب السيارة والقت بنفسها فوق المقعد والقت برأسها الى الخلف ووجهها يطفح بسعادة غامرة ، وتمتمت بكلمات وودت لو سمعتها ، ثم القت برأسها فوق كتفي وأخذت بيمناى من مقود السيارة تماما كما يفعل المتزوجون في شهر العسل .

خَليطٌ مِن العَوَاطِف



ـ يا مختار يا خويا ، ممكن تجي تسهر عندنا الليلـة ، و في العصر اذا أمكن ؟

كانت شقيقتي عفاف على التلفون ، وكانت نبرات صوتها تدل على شيء من الخوف أو الوجل ، ولأزعجني ذلك كثيرا اذ لها في قلبي من الحب والعطف ما يجعلني أخشى عليها القليل من الازعاج ، وسألتها مبديا انزعاجي للهجتها ما اذا كان الامر عاجلا ، ولكن في لطف أجابت :

ـ « ابدا ما فش ازعاج ولا حاجة ، بس عادل طالع بشوية افكار حبينا نناقشها مع بعض ، حُكُم زى ما انت عارف هو يسمع كلامك ولك تأثير كبير عليه » .

ووعدتها بالحضور مع العشاء ، وأخذت كل أفكاري ، ما عساه يشغـل بالها ، وما عسى جاء به عادل من أفكار تدعوها لهذا الانزعاج ، فمنذ اسبوعين كنا نحتفل بتخرجه من الجامعة وحصوله على درجة الشرف مع الامتياز في هندسة البتروكيماويات ، فقد كان الثاني في الدفعة ، وهناك احتمال ترشيحه لبعثة للخارج للحصول على **درجة الدكتوراه** .. هذا بجانب فرص العمل الكبيرة والمرئيات والحوافز المغرية .

وضحكت مع نفسي ، فأغلب الظن ان عفاف تخشى موافقة عادل على السفر والابتعاث او سفره الى حيث يعمل في الحقل الميداني لو قبل عروض الشركات المتخصصة ، فهي تخشى فراقه مجرد فكرة الفراق ، واعتقد ان المحنة التي مرت بها من سنوات كانت لا تزال تترك بصماتها على احاسيسها خاصة تجاه عادل .

وفي السابعة والنصف مساء كنت وعفاف نتجاذب اطراف الحديث في شتى الشئون والمجالات ، ولم اشأ ان أبدأها بالسؤال عن الموضوع الذي طلبتني بخصوصه ، واقبلت ميرفت غضة بضة يضج الشباب في جنباتها فقد اصبحت في السابعة عشرة ، واعجبني جمالها واعجبني قوامها فقد كانت تمثل الجيل الجديد من الفتيات اللائي يقفن على حافة التغيير الاجتماعي الهائل الذي يمر به مجتمعنا ونعايش مخاضه ، وفي عذوبة مفرطة حيتني بتحية الجيل الجديد ، بونسوار خالو .

ـ بونسوار ورحمة الله وبركاته .

اجبتها بتعمد استعمال هذه المفارقة ولم تفطن لما المحت اليه ، شأنها شأن فتيات هذا الجيل الصاعد يظنون انهن على شيء من العلم والثقافة ، ولكنها ضحكت بجرس يؤكد ان الشباب فيها الذي يضحك وقبلتها قائلا : ايه دا يا ميرفت انا ما كنت عارف ان عندي بنت اخت بالحلاوة دي والجمال دا كله .

ـ انت وحشتنا يا خالي ، ايه دا ؟ كيف حال خالة ليلى وليه ما جات معاك ؟ تعرف يا خالو انك وسيم ولذيذ خصوصا بالحتة الجري دي اللي في شعرك .

ـ سعيكم مشكور يا بنت اختي ـ وجذبتها من يدها الى ايه ، يعني مقابلة بالمثل لما قلت انك حلوة ثم ايه حكاية لسانك المعووج ، بونسوار ، جرى ايه يا بنتي ، يا بنت بلدي خليكي بلدي واتكلمي بلدي بلهجة بلدي دا البلدي يؤكل .

ـ يا سلام يا خالو ، برضك حلو ولذيذ هه . واخرجت لسانها ومطت شفتيها ثم استأذنت لمتابعة برنامج التلفزيون بالغرفة المجاورة .

وعدنا للحديث وكان عن ميرفت وشبابها ومتاعب الامهات والآباء مع الشباب وطبيعة الخلاف في وجهات النظر بين جيلين ينتمي كل منهما الى اوضاع يفصل بينهما فجوة زمنية بكل ما تحويه هذه الفجوة من محتوى . وفجأة اندفعت ميرفت الي حيث عفاف وانا نتبادل الحديث ، واخذت بأيدينا .

ـ ماما ؛ خالو ، تعالوا تعالوا بسرعة ابي عادل ظهر في التلفزيون تعالو بسرعة ، يا سلام يا ماما آبي عادل في التلفزيون شكله حلو وهايل .

وأسرعت عفاف تسبقنا ، وتباطأت بعض الشيء فالتفتت ميرفت الي تتعجلني : يا واد يا تقيل ! قالتها وغمزت بعينيها ثم جذبتني حتى كدنا نقع .

وعلى الشاشة الصغيرة كان مقدم برنامج « العلم في خدمة المجتمع » قد ترك الميكروفون للمهندس عادل محمود .

وتركزت انظارنا على الشاشة الصغيرة ، ومن دون ملايين المشاهدين للشاشة ؛ كنت وعفاف الوحيدين اللذين كانت جميع حواسنا متركزة على الشاشة الصغيرة ، وكان **المهندس عادل محمود** يتحدث في عبارات جزلة ويقرب الحقائق العلمية المعقدة ويضعها في أسلوب مقارن امام المشاهد وكأنه في حديثه ومن لهجته كأنما يحاول ان يكسب المشاهدين الى صفّه في قضية يحارب من أجلها ، وكان يركز بصفة خاصة على تطبيق العلم ـ ومنجزاته في مجالات الحياة وبالتالي تسخيرها لخدمة الانسان .

وكانت ميرفت جالسة القرفصاء على الأرض امام الشاشة الصغيرة تحتضن ركبتيها بكلتا يديها وكلما اتجهت عينا عادل إلي عدسة التلفزيون تحس انها تود ان تقفز اليه ، اما انا فقد امتلأت نفسي سرورا ان اراه في مثل هذا الموقف وهو يتحدث حديث العالم الواثق ، وانتقلت الى المستقبل لأرى ممدوح وصفوان ، وقد بلغا مبلغ الرجال ، اما عفاف فقد كانت تسبح في مشاعرها الخاصة .

وبعد انتهاء البرنامج تركنا الغرفة الى حيث كنا من قبل لنترك لميرفت حرية المشاهدة ولنعفي انفسنا من الجهاز نفسه ، والقت عفاف بنفسها على الأريكة والقت برأسها الى الخلف ، وهبط ذراعاها فوق طرفي الأريكة وبدت وكأنها تحت تأثير تنويم مغناطيسي ، وتركتها لمشاعرها ، وأشعلت لفافة تبغ وتساءلت ما عساه الأمر الذي جعلها تطلبني.

واطلقت عفاف آهة عميقة ثم اردفت تحدث نفسها :

ـ ما أدري .

ـ ايه ، ومين اللي يدري ، سبحان الله الذي يعلم ويدري .

ولعلي فاجأتها بقولي هذا ، او لعلها تنبهت لوجودي قائلة :

ـ فعلا سبحان من يعلم ويدري ، في الحقيقة يا مختار يا خويا انا مش عارفة عادل اصبح عندي كل شيء باشوف فيه ايامي الجاية ، باشوف فيه عكازتي اللي اتوكأ عليها ، بكره لما الزمن يعمل عمايله فينا ، بأشوف فيه الأمل ، والضمان والأمان للمستقبل زي ما يكون هوا رصيدي في الحياة ، باخاف عليه من كل حاجة ، اخاف عليه من حاجة تاخذه مني .

ـ الله ، الله ـ كانت اجابتي ـ يعني اصبحتي حماة من قبل ما يفكر في الجواز ، تأكدي انه بكره رايح يتجوز ويصبح مسؤول عن زوجتـه واولاده وبيته ، زوجته دى فعلا رايحة تأخذه لنفسها ، لازم تهيئى نفسك للحقيقة دى وتتصرفي بعقل ، بس انا مش معاكي في انك ركزتي عليه كل حاجة ، يعني ايه هو الضمان ، يعني ايه هو الامان للمستقبل ، يعني ايه هو رصيدك في الحياة .. ايه معنى دا كله ، دا شرك بالله .. فين الله اذا في تفكيرك ، الأمل الضمان والامان هو الله فقط ، انت جاعله رصيدك حاجة مصيرها العدم .. استغفر الله العظيم ، صحيح انكم ناقصات عقل ودين .

ونهضت فجأة وأمسكت بعنقي وهي في شبه ثورة مشوبة بضياع :

«عدم يعني ايه .. يعني ايه مصيره العدم (عادل) مصيره العدم ، ليه تقول عليه كده ؟ دا انت خاله ، لا ، لا يا مختار ، انا زعلانه منك ليه تتمني له العدم»، واوشكت ان تنتابها نوبة بكاء حاد ، فأمسكت بيدها بحنان وانزلتها من فوق رقبتي وقبلتها فوق جبينها وضممتها الي صدري وشعرت بثقل رأسها فوق كتفي كأنها تلقي بثقل حمولتها من افكار متصارعة داخلها .

وأمسكت بذقنها ، ارتفع رأسها بعد ان اجلستها بجانبي حتى التقت انظارنا فتنهدت آهه كأنما استجرتها من اسفل اقدامها حتى اطلقتها من شفتيها بعد ان جاست كل داخلها : «استغفر الله العظيم ، استغفر الله العظيم ، صدق الله العظيم »«انك ميت وانهم ميتون»، وكأنها اذ رددت ذلك تخلصت من كل متاعبها العاطفية ، وسرت روح البشر والسعادة فوق معالم وجهها ونهضت قائلة :

ـ اسمع اقوم اعمل فنجانين قهوة وبعدين اكلمك في الموضوع اللي طلبتك بخصوصه .

ـ من ايدين ما نعدمها يا ام عادل .

وقبل ان اجيب علي هذه المجاملة كان عادل يفتح الباب ويدخل وهو ملء شبابه ، فرحة للعين فعلا ومثلا لشباب نفتقده في وقتنا الحاضر ، ولذلك عذرت عفاف في حرصها عليه كشيء ثمين ونادر الحصول عليه ، وأخذ والدته بالاحضان وقبلها فوق رأسها وما رآني حتى اندفع نحوى : اهلا خالي ايه الفرصة الحلوة دي ؟. واخذنا بعضنا بالاحضان كأي صديقين ، ثم التفت الى والدته :

ـ يا ماما اهي فرصة خالي هنا ونبحث الموضوع معاه ـ والتفت مرة اخرى تجاهي :انا احب اخذ رايك يا خالي . فيه ايه الحكاية ؟ قاطعته ضاحكا: انت تأخذ رأي مامتك ، تأخذ رايي ؟ مراتي تأخذ رأيي ، وبعدين كل واحد ياخذ رأيي وانا افضل من غير رأي .

وضحكنا ، كلانا بينما عادت عفاف تحمل في يدها صينية القهوة واكواب الماء .

وشعرت كأنما عفاف قد تخلصت من عبء ثقيل هو عبء فتح موضوع الحديث الذي من اجله طلبت حضوري ، ذلك ان عادل بدأ قائلا :

ـ تعالي هنا يا ماما ، وزي ما اتفقنا نعرض الموضوع على خالي ـ والتفت موجها الحديث الي ـ زى ما انت عارف يا خالي ، انا الحمد لله اتخرجت الآن وتقديري اكثر من ممتاز ، وامامي فرصة ابتعاث من الجامعة علشان الدكتوراه ، واعود في هيئة التدريس ، وفرصة ثانية قدامي ، العمل في شركة للابحاث ، براتب مغري جدا ، حوالى (١٢) الف ريال مع تأمين سكن ومواصلات خاصة .

ـ وطبعا تحب تأخذ رأيي في اي واحدة من الفرصتين تختار ، مش كده ؟ انا بتهيأ لي ان ...

ولم يتركني اكمل حديثى ولا حتى عفاف ، فقد اخذ يبتسم بينما عفاف اخذت فرصة الحديث مني قائلة: ابدا ـ ابدا يا ريت الحكاية واحدة من الاثنين ، تصور حضرته ضاربة في دماغه ان يلتحق بالخدمة في الدفاع المدني. .. ووجدتني انهض معبرا عن دهشتي .. فقد كان اختيار الدفاع المدني مجالا لخدمته ، امرا مثيرا لدهشتي ، ذلك انني لا اعلم كيف يستطيع وهو متخصص في هندسة البتروكيماويات ان يكون ذا فائدة في مجال الدفاع المدني ، وأبديت لعادل ما يجول في فكري ومثار دهشتي .

ـ ابدا ، قالها عادل ـ وكأنه لم يشعر بالهزة العنيفة التي اثارها اختياره هذا .

-انت عارف يا خالي ان دى كانت رغبتي من زمان ، من قبل ما التحق بالجامعة ، تذكر الحوار الطويل العريض اللي جلسنا نتحاور كلنا بعد ما اخذت الثانوية العامة .. انا دخلت الجامعة علشان ما حبيت أصدم امي واصدمك ،

وامشي ضد رغباتكم ، فاكر الحوار وكأنه البارحة ، عرضت علي يا خالي دخول كلية الطب واتخرج طبيب ، وجلست تشرح لي المميزات الاجتماعية اللي يتمتع بها الطبيب عن اي مهنة اخرى .

ـ ما هو دا صحيح ، قلتها بحماس ، وكأنني اناقش مرة اخرى ، الطبيب مهنته تفرض له وضع اجتماعي مميز لأن طبيعة مهنته تعطيه الاطلاع على كثير من اسرار النفس واسرار الجسد ، بجانب انسانية المهنة .

ـ ما اختلفنا يا خالي ، بس انسانية المهنة وحدها غير كافية انها تعطي للطبيب مطالب الحياة يعني لو اكتفى بإنسانية المهنة وحدها ، كان يموت من الجوع وما كان ممكن يهيء لنفسه واولاده واهله مستوى اجتماعي ممتاز ، وعلشان كده تلاقي الطبيب يقدم خدماته وعلمه ومهارته بمقابل مادي ، سواء في عيادته الخاصة او المستشفى ، ولو انتفى هذا المردود المادي كان راح يبحث عن عمل يعطيه مردود مادي محترم علشان يقدر يواجه مطالب الحياة ، والا دا غلط يا خالي ؟.

ـ ما هو دا الوضع ينطبق على اى مهنة اخرى ، تفرق ايه الخدمة في الدفاع المدني عنها مثلا في اى مجال اخر .. التدريس مثلا الجيش ، الشرطة ، ما هي كلها مهن شريفة وفي منتهى الشرف .

بحماس وانفعال كنت اناقشه ، بينما عفاف كانت مسترخية بجوارنا وهي تتابع النقاش ، وبين فترة واخرى كانت تلقي بتعليق او تعقيب على احدنا ولكنها قليلا ما كانت تصرف عينيها عن عادل وكأنما كانت تملأ حواسها منه عن طريق حاستي السمع والبصر.

ـ صح ، ما اختلفنا ياخالي ، كلها مهن شريفة ، وخدمات اكثر شرف ، لكن في سلم التفضيل ، الدفاع المدني ، عندي انا يجي في القمة .

خد عندك يا خالي مثلا ، رجل البوليس او الشرطة ، من القمة الى القاعدة كلهم يؤدي للمجتمع خدمة حيوية ، يمكن المجتمع بحكم التعود ما

يدرك قيمتها الا من في معناه الحقيقي ، رجل البوليس بعد الله وبتوفيق الله هو اللي بيحققه وأي مجتمع لا يشعر بالطمأنينة والامان على نفسه وماله وعرضه .. لا يكون مجتمع حضاري ، ورجل البوليس هو اللي بيحقق لنا هذا الوضع ، لكن هذا الأمان والأمن والطمأنينة بيحققها للمجتمع وكمان لأفراد اسرته وعياله وامه ، وابوه ، هو برضه افراد المجتمع ، يعني هو بيخدم مع المجتمع نفسه وأهله ، يعني اصبح له عائد شخصي عليه .

ـ «بس يا بني ياعادل»اردت ان اعترض ببلادة وقد اخذني منطقه ، ولكنه لم يعطني الفرصة .

ـ صبرك بالله يا خالي ـ واستطرد ـ خد عندك كمان الجيش ، من القمة الى القاعدة ايضا بلا شك كل واحد فيهم بيقدم اغلى شيء عنده ، روحه ودمه بيقدمها كل فرد من افراد الجيش في سبيل ان الوطن يفضل مستقل ، ولما يكون الوطن مستقل وترابه طاهر من دنس المحتل معناه ان كل فرد فوق هذا التراب يقدر يعيش رافع رأسه معتز بكرامته اللي حفظها وحققها له الجيش ، وبطبيعة الحال كل فرد من افراد الجيش من القمة الى القاعدة منتمي الى هذا المجتمع وله فيه ابوه وامه واخوه واخيه وزوجته واولاده وبناته ، ودول برضه بيعيشوا رافعين رأسهم ، محفوظة لهم كرامتهم .

ـ قصدك تقول ايه ؟ ـ كذلك اعترضت اندفاعه للحديث ليلتقط انفاسه ولأجد ثغرة ادخل منهاالمناقشة . وبكل هدوء عاود حديثه ليواصله:ـ قصدي اقول .. ان فيما فعلوا شرف كبير لا يختلف في هذا اثنان ، تماما كما انك لا تستطيع ان تختلف معايا في انه العمل هذا من جانب الجيش ـ من القمة الى القاعدة ـ لا يخلو من مردود شخصي يتمثل في الام والاب والزوجة والابناء .

ـ طيب ما هو دا ينطبق على كل القائمين بكل الخدمات ؟.

وكنت اعلم صدق قوله .. ولكني اردت ان اسرق منه افكاره .. او اشوش

عليه ، وكنت اعلم ايضا انها مكابرة مني واردت استخراج الفكرة من رأسه او اتعجل استخراجها .

ولعل الحديث لم يرق لعفاف ، حيث تلفت نحوها فوجدتها وقد استغرقت في نومها ، واخرجت لفافة تبغ اشعلتها ثم قدمت اخرى لعادل . ولم اكن قد فعلت ذلك من قبل ، ولعله الاحساس بأنني اتحدث الى رجل في موقف الند جعلني افعل ذلك ناسيا ان عادل لم يكن ليدخن ولم يسبق له ان فعل ذلك ، واعتذر عن عدم التدخين وسألني : رأيك ايه ؟

ـ في ايه ، هو انت تركت لي رأي اقوله ، رأيي الوحيد اللي قلته هو ان كل الخدمات في المجتمع لها نفس المردود بشكل او آخر على القائمين بالخدمة ، وكنت اظنني أنطق بحكمة ، ولكن منطق عادل وايمانه بقضيته جعل ما قلته شيئا اخر غير الحكمة .

ـ الا الدفاع المدني ـ قالها واستلقي أو القى برأسه الى الخلف برهة ثم اعتدل في جلسته ، وامسك بكلتا يداى : الا الدفاع المدني يا خالي ، كله رجاله من القمة الى القاعـدة ، يؤدون اشرف خدمـة مدنية ، بدون مردود شخصي ، تصور الواحد فيهم يلقي بنفسه في أتون النيران المشتعلة ، يطفيها ليستنقذ من ألسنة اللهب حياة اناس آخرين لا تربطه بهم اى صلة ، او يستنقذ اموال ناس اخرين برضه لا تربطه بهم اى صلة في الحريق .. في الغرق .. في الانهيارات .. في الكوارث ، تقدر تديني اى مثل في مردود او عائد شخصي يعود على الفرد منهم في عمله ؟.

وصمت برهة وركز ناظريه في وجهي وعجزت عن مجاراته أو ان آتيه بمثل ، وسللت من يديه يداي واقفا .

ـ «لا لااجد بس انت قصدك تقول ايه »؟. وشعرت انني اقول ذلك وانا ارفع الراية البيضاء فلم يكن عندي ما اقرع به حجته ـ «قصدي، انا لا اقصد اى شيء كل ما في الامر حبيت اقدم لكم برهان انني لما اخذت العمل

اخذته وانا علي بينة بأنني لا اعمل غلط وعلشـان تعطونـي مبـرر واحـد لمعارضتكم الالتحاق بالدفاع المدني » .

وربت بيدي علي كتفي عادل واخذته الى صدري اضمه فهذه المرة الاولى بعد سنين طويلة افتقدنا فيها نضوج الفكر عند الشباب ، التقي فيها بمثل هذا النضوج الفكري في مثل هذه السن المبكرة من الشباب .

ـ حجتك دامغة بلا شك ومنطقك ممتاز بلا شك ، لكن احب اسألك سؤال أخير .. قبل ما أمشي ـ ونظرت الى ساعتي فقد كانت تقترب من الحادية عشرة والنصف مساء « هل يا ترى قناعتك بشرف خدمة الدفاع المدني هي السبب والدافع لاختيارك الخدمة فيه ؟» ولم أتهيأ لسماع الاجابة منه ، ذلك ان كل المقاييس تؤكد الاجابة بالايجاب ، ولكم ان تتصوروا مبلغ دهشتي وذهولي حين اجاب عادل سلبيا .

ـ ابدا يا خالي .. قناعتي هذه ليست السبب الوحيد ، بل ولا لها اي علاقة باختياري الدفاع المدني مرفقا التحق للخدمة فيه .

ـ « اذن ايه ؟ » وأنا اكاد اصرخ ، وخيل الي ان بضعة مطارق من حديد اخذت تقرع في عدة نواقيس داخل تجويف جمجمتي ، وعدت اصرخ : اذن ايه يا عادل يا ابني ايه .. فهمني ؟.

واخذ بيدي ولف يمناه خلف كتفي وجذبني اليه .

ـ في الحقيقة يا خالي عندي سببين اثنين .. اولهم معارضتكم خاصة والدتي لالتحاقي بالدفاع المدني ، وبيني وبينك انا خلاص في حالة تشنج من تلقي توجيهات شئون حياتي من الغير ، انا اصبحـت في مركز بكل المقـاييس الاجتماعية يعطيني الحق في اختيار مجال عملي ومستقبل حياتي وهذه هي نقطة البداية لا ستقلالي بنفسي والا انتم برضه تختاروا لي وظيفتي ؟ دا مش ناقص الا انكم تختاروا لي زوجتي كمان ، والا انا غلطان ؟

وعند هذه الجملة الاخيرة كانت عفاف قد استعادت صحوها والتقطت اذناها نبأ اختيار الزوجة ، فأطلقت غطريفة طويلة تردد صداها في جنبات الليل ، وكانت عفاف فرحة جذلة اخذت تروح:وتغدو دا يوم المنى يا عادل ، وحياة اللي انشأك دا أنا جايبه لك عروسة جميلة ، واطلقت غطريفة طويلة اخرى ردد الليل صداها ، واخذت بعض الرؤوس تطل من النوافذ المجاورة . وقبل ان يتدخل اى منا بالحديث كان الباب الخارجي للمنزل قد فتح ودخل منه محمود صهري والد عادل وهو فرحان جذلا ، وحياني وعادل ، وقبل وجنة زوجته عفاف ، ثم اخذ يقص علينا كيف انه يمشي بخطى واسعة نحو بطولة لعبة البردج وكيف انه هذه الليلة كان نجم المجموعة .

وتبادلنا عواطف وعادل وانا النظرات ثم همس عادل في أذني قائلا بأسى واضح : الوالد مهتم ببطولة البردج والوالدة مهتمة بتزويجي ، وانا مهتم بمستقبلي ، يا ترى انت مهتم بايه يا خالي ، يا سيد الخلان ؟.

وتنهدت بأسى بالغ يكاد يبدو رغم ما احاوله من كبت له واخفاء الظاهر: يا عادل يا ابني ان الاحسن الا اهتم بشيء مطلقا بعد التركيبة العجيبة اللي احنا شايفينها ، أولا لازم اهتم بأني اخرج من هنا قبل ما اغلط او قبل ما اصاب بعدوى الاهتمامات المتصارعة والمتباعدة .

وقبلت عادل ورجوت الله في داخلي ان ينشىء ابني ممدوح وصفوان مثل عادل نضوجا وعقيدة وفكرا ، ثم قبلت عفاف على خدها مستودعا ، واستأذنت من محمود مودعا ايضا ولم أنس ان ابلغه كل تمنياتي الطيبة بالمركز المرموق في عالم البردج . وفي طريقي الى البيت استعدت شريط الواقع امامي ، عفاف وقد عادت ثانية الى امومتها المطلقة وما يتبع ذلك من اهتمامات ، وعادل بخطى ثابته يشق طريق مستقبله ، ومحمود وكأنه غمرات تزيده عمها على عمه ، لا يكاد يشعر بالمخاض الذي في بيته .

حَادثةُ العُمر



خرجت الصحف اليومية تحمل في صدرها وعلى صفحاتها الأولى أنباء تكريم الدولة لمائة وبضعة عشر من ابنائها ممن قدموا لبلادهم خدمات انسانية وحيوية وجوهرية في نصف القرن المنصرم ، وجميع وسائل الاعلام كانت وكأنها في مهرجان ، فقد كان الحدث نفسه فرحة عارمة شاملة ، فقد أهدت الدولة لهم نوط الجدارة من الدرجة الاولى الممتازة ، وتقرر اقامة حفل مشهود ، وخرجت الصحف وعلى صدرها انباء ذلك وصور المكرمين وجندت الصحافة رسلها فوق تراب الدولة تتصل بالمكرمين وتغطي اخبارهم وقصص حياتهم ، ولم يقصر التلفزيون عن منافسة الصحافة وكان مهرجانا على مستوى الدولة والمجموعات والافراد .

والذي هز مشاعري اكثر شيء أن أجد صورة عادل واسمه بين المكرمين بجوار عمالقة الخدمات الانسانية ممن سبقوه في العمر على قصر المدة التي قضاها في حقل خدمته ، وعدت أتذكر حديثي معه ومناقشته لي واقناعه بسمو شرف الخدمة في الدفاع الوطني . كان قد مضى على هذا الحديث تلك الليلة ثلاث سنوات وبضعة شهور ، حيث التحق عادل بالكلية العسكرية لدورة

كاملة مكثفة ليكون على دراية ولياقة بواجباته الجديدة . وتخرج من الكلية العسكرية وأعطى درجة عسكرية أعلى مقابل تخصصه السابق ، ثم منح بعثة لمدة سنتين قضاها بين امريكا واوربا لدراسة الجديد والمستحدث في علم الدفاع المدني . ثم لدراسة قيام مختبر متخصص في شئون الدفاع المدني وقد نجح في اقامة هذا المختبر الذي كان الأول من نوعه في المنطقة ، ثم أقام جسورا علمية مع الجامعات والكليات العلمية في الداخل والخارج ، وشد انتباه المعاهد والأكاديميات العلمية في الداخل والخارج لهذا المجال الجديد الذي تبناه وتوصل مختبر الأبحاث هذا الى اكتشاف واختراع العديد من الوسائل العلمية والفنية التي ساعدت على رفع كفاءة خدمات الدفاع المدني عالميا ، وتخفيف آلام الانسان ، وامتدت الجسور بين هذا المختبر وبين الاكاديميات المتخصصة دوليا ، وأصبح اسم عادل يتردد في المجامع والمحافل الدولية ، ودعي الى كثير من المؤتمرات الدولية المتخصصة .

-« أبي عادل في التلفزيون يا بابا ».

كان المتحدث صفوان ، أتى يدعوني لمشاهدة التلفزيون واندفعت مع صفوان لمشاهدة البرنامج وكان التلفزيون يجري مقابلات خاطفة مع المكرمين ، وفي لقطة «بروفيل» لمحت شعيرات بيضاء على رأس عادل الذي هو في مقام ابني غزاه اللون الابيض ، ولا إراديا تحسست رأسي ثم نهضت إلى المرآة وأسألها ، ولعل هذه الخاطرة لم تفت ليلى حين ضحكت من قلبها واردفت قائلة :

- « الزمن مش احسن معلم وبس ، دا أحسن صباغ برضه كمانه »

وانصرفت عاجلا عن المراة ، وتصنعت كأنما كنت أصفف شعري ونظرت لليلى فلم تمهلني لأسألها عن تعليقها ، ولكنها غمزت بعينيها وبحركة من أنفها وشفتها العليا ، ولولا تواجد صفوان واخوته لكان ثمة شأن معها .

وهرعت الى الهاتف لأتحدث مع عادل وأسوق له التهنئة القلبية فرفض التهنئة تلفونيا وتواعدنا على اللقاء عشية يوم الاحتفال الكبير الذي تقرر اقامته مساء الاربعاء التالي ، واتفقنا على ان نلتقي بمنزله ثم الذهاب سوية الى الحفل معه ووالده .

وفي الموعد المضروب كنت هناك وبقية العائلة حيث قررنا ان تقضي ليلى والاولاد السهرة مع عفاف وميرفت والوالدة ويتابعون برنامج الحفل على الشاشة الصغيرة .. وكانت عفاف اشبه ما تكون بعاشقة تزف الى هدفها فقد كانت مرحة فرحة سعيدة تباشر كل عمل وكأنها تسبح في الهواء لا تمشي على الارض وكأنها تزف عادل الى عرس .

وكانت ميرفت دائبة الحركة تواصل تقديم الحلوى والكيك وتصب اقداح الشاي بالحليب وبحركة خفيفة نظرت الى الساعة ثم تركت كل شيء فقد أوشك وقت الخروج ، وعادت بعد لحظات وفي يدها مصحف صغير من النوع الذي تحمله بعض الفتيات على صدورهن ، بسلسلة ذهبية ، واحاطت بأخيها عادل من خلف الكرسي ثم ثبتت المصحف فوق صدره متدليا من رقبته ثم قبلته وكأنها تودعه .

ـ « ايه دا ؟ » قالها كابتن عادل فقد كان يرتدي البزة الرسمية ..

ـ ايه ؟ مصحف طبعا، انا باستبارك به وعشان يحرسك من العيون ، مصحف كلام ربنا والا ايه يا آبي» ..

ونطقت الجملة الاخيرة في حنان ودلع ..

-«على عيني وراسي المصحف يا ميرفت يا حبيبتي انما بسلسلة وفي رقبتي ايه تفتكريني ايه «بنت والا ست .. لا ،لا» واخذ كمن يحاول نزعه .

ـ « والله العظيم ما انت شايله .

قالتها ميرفت ، بعزم وقد أمسكت يدي شقيقها

ـ « ايه اللي بنت والا ست ما كل الشبان لابسين سلاسل في رقابهم وياريت مصحف» .

ـ « يا ميرفت يا حبيبتي اولا انا غير دول ثم الشباب اللي بتقولي وتحكي عنهم ، ما هم رجال ، ابدا ولا يمكن يكونوا رجال بمعنى الرجولة لسبب بسيط ، لأنهم متشككين في رجولتهم او رافضين لها ، يعني عاملين جبهة رفض للرجولة وطبعا مش ممكن يكونوا اناث » .

ـ اذا كانوا لاهم رجال ولا ستات ، يطلعوا ايه اذن ؟.

قالتها ميرفت وهي ما تزال ممسكة بالمصحف المتدلي من رقبة شقيقها .. وبدا وكأنها تحاول سحبه من مكانه عن قناعة ..

ـ « انا اقول لك دول كده ممكن نسميهم الجنس الثالث،الجنس البشري قسمين .. ذكور واناث انما دول جنس لا كده ولا كده يصبح اذن جنس شيطاني زى الزرع الشيطاني » .

وأخرجت ميرفت المصحف من السلسلة ونزعت السلسلة ثم اعادت المصحف الى الجيب الامامي في بدلة شقيقها .. واعجبتني جدا هذه المناظرة ،

ـ « تعرف يا خالي » قالها عادل وقد امتدت يمناه لتمسك بيدي ويسراه بوالده وقد مال بجسمه للأمام،«بيتهيأ لي ان حركة الشباب دول اللي بيرفضوا رجولتهم وبينافسوا الستات في التأنق والتجميل ، وتصفيف الشعر بيتهيأ لي ان وراءها تفكير وتخطيط » .

ـ« يعني ايه يا آبي ؟».

ولأول مرة ألمس نبرة وجرس الاهتمام في صوت ميرفت على رقة وعذوبية .

ـ « يعني انها حركة مضادة .. حاجة كدة منظمة وراءها تفكير وتنظيم بالضبط زي رد الفعل ، ما هو التفكير العلمي بيقول : ان لكل فعل رد فعل مساوله في القوة ومضاد له في الاتجاه ، أهه انا بتهيأ لي ان حركة الشباب دول هي نفسها رد الفعل » .

ـ « رد الفعل لإيه يا آبي ، ايه هو الفعل هنا اللي كان دا رد الفعل ؟»
ـ « اقول ومن غير زعل يا ميرفت ؟ الفعل الأساسي هو حركة مساواة المرأة ومطالبتها بالمساواة ، وبالخروج من البيت والنزول الى الوظيفة ومزاعم ان نصف المجتمع معطل ، والست لازم تتوظف ، وو.. والبيت ما يلاقي من يقوم بشئونه يعني الست تترك وظيفتها الاساسية وتنزل تنافس الرجل في الوظائف ابتداء من مدرسة وممرضة ثم شوية شوية سكرتيرة .. وو والحبل على الجرار ، هذا هو الفعل خروج المرأة عن مسارها الاجتماعي او فلكها الطبيعي بطبيعة الحال يكون رد الفعل اللي احنا شايفينه شباب يتأنق ويتجمل ويلبس الكعب العالي ويلبس الملابس الشفافة على اللحم .. و وو لولا استحالة بيولوجية كان .. وأخذ يهز رأسه وأمسك عن الكلام .
ـ « لا .. دا موضوع يطول شرحه ومناقشته ، »
قالتها ميرفت وهي تضع اللمسات الاخيرة على هندام ام شقيقها .
ـ « الساعة قربت على الثامنة دوبكم تروحوا وان شاء الله المناقشة لها وقت ثاني » .
ـ « يا لله بنا يا جماعة » .
وقبل عادل يد والدته واتجه لشقيقته يقبلها . وهنا ارتفع صوت انين غامض من الجهاز اللاسلكي الذي يحمله عادل معه بطبيعة عمله وهو جهاز اتصال على موجة خاصة بين الدفاع المدني ورجاله .
واستجاب عادل للجهاز فتحه ليتلقي الرسالة .
ـ « الو كابتن عادل عفوا ، سيادة الرائد عادل ، اتفضل الرائد مصطفى يكلمك » .
ـ « الو يا اخ عادل ، انا متأسف اتصل بك في الوقت دا وعارف انك على موعد لحفل تكريم ، بس الأمر عاجل بعد خمسة دقائق تمر عليك عربة القيادة اتفضل انزل معاهم وتمر على المركز الرئيسي وتصحب احتياجاتك عندنا حريق

كبير وانهيار منازل قديمة في الحي الجنوبي لنا اكثر من ساعتين بنكافح ، القيادة العامة امرت بالاتصال بك وبالعقيد عصام ، والعقيد ممدوح » .

وساد الوجوم وخيم صمت ثقيل او مرهق علينا جميعا وضربت عفاف بكفها على صدرها وميرفت ردت يدها الى شفتيها كاتمة شهقة كادت تفلت من صدرها اما عادل فكان طبيعيا وكأنه كان بانتظار النداء حيث كانت اجابته :

-انا جاهز في انتظار السيارة .

والتفت الى ابيه واياي : انتم اسبقوني على الحفل ، وانا انجز المهمة والحق بكم .

ولم أحر جوابا فقد كنت مفعما اعجابا بعادل ، ذلك انه لم يتردد واستجاب للنداء فور استدعائه دون ضيق او انزعاج ، وازددت اعجابا ان يكون في أهلنا مثل هذا الشباب الذي يقدر مسؤوليته ، وفي لحظات كان عادل يغادرنا حيث ارتفع نداء المطالبة من سيارة الدفاع المدني بصفارتها المميزة .

واراد محمود ان يتكاسل عن الذهاب ولكني تمسكت بالذهاب واصررت ، اذ خلاف المعقول الا يكون مع عادل بعض اهله في حفل تكريمه وما ان وافت الثامنة والنصف حتى كنا في مقاعد الشرف بالنسبة لأهل واقرباء المكرمين . وتتابعت فقرات الحفل ابتداء بالقرآن الكريم ثم بكلمات الافتتاح ، وكلمات التقدير ثم وقف راعي الحفل يلقي كلمة يشيد فيها بمبدأ العطاء الذي يعطيه الفرد لبلده ووطنه ودينه ، وان هذا التكريم من جانب الدولة انما هو اعتراف منها بجهود لم يطلب باذلها لنفسه مردودا شخصيا وتكريم لأفراد كان بلدهم كريما عليهم فكرموه فهو يكرمهم .

ووسط عاصفة من الهتاف والتصفيق ابتدأ النداء على المكرمين لتسليمهم او من ينوب عن السيدات وأشرأبت الأعناق واخذت كاميرات الصحافة والتلفزيون تتسابق وحاملوها كل يرجو ان يأخذ مكانا استراتيجيا ليلتقط الأحسن من الصور .

وكان المكرمون خليطا من ابناء البلد الواحد يمثلون قطاعات من مجالات الخدمة فكان منهم الرواد الاوائل من المدرسين وثلاث سيدات كن اول من شققن الطريق لتعليم الفتاة من اكثر من اربعين عاما وبضعة نفر من البقية الباقية من الذين بذلوا وشاركوا في ارساء اسس الدولة الحديثة مع مؤسسة الراحل ، واربعة من الباحثين في الشعر والتاريخ وعلم الأُمكنة ومع كل نداء كان يتقدم المكرم ليتسلم الوسام وكانت اضواء العدسات وخاصة التلفزيون حيث كان الحفل مذاعا على الهواء وانطلق صوت الراعي ينادي .

ـ « الرائد عادل محمود» .

وتكرر النداء ولا مجيب ثم كان ان تقدم مدير عام الدفاع المدني مستأذنا من راعي الحفل ومكرم الكرام ليشرح اسباب غيابه المكرم الرائد عادل محمود قائلا :

ـ ليسمح لي الحفل الكريم بعد إذن الراعي الكريم ان اعتذر باسمي وباعتباري مدير عام الدفاع المدني ، أُعتذر عن غياب المكرم فانه لم يتمكن من الحضور لأنه في الوقت الحالي يقوم بأداء واجبه الانساني فقد استدعى منذ اكثر من ساعة ليساعد في عملية انقاذ في المنطقة الجنوبية حينما كان يتهيأ للحضور ، وانني على اتصال لاسلكي بالجهاز الذي احمله بالرجال هناك ، وان يأذن لي الراعي الكريم لهذا الحفل فسأنقل لكم عبر الجهاز وقائع وجود الرائد عادل محمود هناك .

ثم قرب جهاز الاتصال اللاسلكي من مجموعة المكروفونات فانطلق دوى رهيب واصوات متداخلة لمعركة الانقاذ القائمة هنـاك واستمـع الحـاضرون ومشاهدو التلفزيون ومستمعو الاذاعة الى اعجب حديث .

ـ « الو يا كابتن عادل هنا مركز العمليات رد علينا انت سامعنا حول» ..

ومضت لحظات ولا جواب وتركزت كل الحواس في حاسة السمـع ، وسمـع لبعض القلوب وجيبها ودقات بعض القلوب اصبحت مسموعة او تكاد من هذا

الصمت الذي ران على الموجودين كأنهم جميعا امسكوا عن الحركة او عمل اى شيء يعيق الصمت عن سماع صوت عادل للاجابة .

وتكرر النداء ثم جاء صوت عادل ضعيفا في جهاز الالتقاط .

-« الو انا عادل سامعني يا كابتن مصطفى ، يا كابتن مصطفى».. وما تردد صوت عادل حتى اخذ السامعون يصافح بعضهم بعضا واخرون يقبل بعضهم بعضا وعجبت لهذه المشاعر الانسانية المتدفقة ولعلها بعض خصائص هذا الشعب .

وأخذ الصوت يتضح اكثر فأكثر حيث اجاب مركز العمليات :

- سامعينك يا كابتن عادل انت فين ؟ حول ..

وجاء صوت عادل واضحا : الو انا هنا ألاقي صعوبات كبيرة ارجوكم اسمعوني ، اعطوني فرصة اتكلم واشرح الوضع بدون مقاطعة .. الظاهر ان العمارة كلها انهارت ، نحن هنا في حاجة الى الهواء .

- انتم انتم مين .. وكام شخص معاك .

كان ذلك استفسار مركز العمليات .

- أنا هنا ومعايا اثنين ستات واحدة مغمى عليها شابة وواحدة ست عجوزة .

- « عجوزة في عينك ، طيب انا ماني خارجة لك من هنا ما دام تقول علي عجوزة ..

كانت هذه مفارقة عجيبة فلعلها العجوز قد غضبت لهذا الوصف ، وكان لصوتها ولهذه المفاجأة فعل السحر ، في امتصاص التوتر الذي كان سائدا علينا في قاعة الحفل ، واعتقد ان ذلك ايضا كان شأن مشاهدي التلفزيون وسامعي المذياع . واستطرد صوت عادل تسمعه بوضوح .

- « يا ستي قصدي ان العجوز مش انت انما دى اللي لا تضرب بيد ولا رجل مش انتي اللي بتضربي بلسانك .»

ـ « الو احنا هنا في قاعدة المبنى المنهار، الاتربة واخشاب السقوف محاصرتني انا عامل ضلع مثلث مع قدتين من الخشب والقاعدة جالسة عليها الست العجوزة وواحدة شابة فاقدة الوعي .

ـ « عسى يفقدك وعيك يا بعيد ، ما دام انا عجوزة طيب خليني اشوف ، ماني خارجة اهه».

كان صوتها بادي الغضب وهو يرتجف بعامل السنين .. ومرة اخرى ضج الحاضرون بالضحك واستطرد عادل .

ـ رايح اعمل فتحة بالمسير الآلي اللي معايا ، وانتم من عند الفتحة وسعوها وادخله لنا بوق للتهوية ، اما الانقاذ فاتصور انكم تعملوا درعين من المصفح فوق الفتحة مباشرة وتجعلوها حامية لأي انهيار ثانوي اثناء دخولكم ، وارجو توسيع الفتحة لدخولكم تدريجيا احسن زي ما قلت لكم انا وعمودين من الخشب الضخم فوق كتفي عاملين اضلاع المثلث وفي القاعدة الشابة الغندورة والبنت المغمى عليها ، حول »

ـ « ايوه كده اتعدل في كلامك » .

جاء صوت العجوز ونبرة الفرحة غامرة في صوتها واختلطت الأصوات من بعد وتداخلت التعليمات وفجأة عادت الاصوات واضحة بعد دقائق عشر حيث سمع صوت عادل .

ـ « برافو كابتن ممدوح شكرا ، لو سمحت توسعوا الفتحة والمدخل وناولني محفة بعجلات تاخدوا الانسة »

ـ « انا داخل لعندك يا كابتن عادل »

ـ « لا اسمع انت ادخل وانت نايم على المحفة على وجهك ، المكان في منتهى الضيق زى علبة النشوق ، تدخل على المحفة وتتناول الصغيره تسحبها من رجلها والست الكبيرة ترفعها من عند كتوفها لحد ما تستوى فوق المحفة وتسحبها .»

ـ انا ماني موظفة عندك ولا في الدفاع المدني ، علشان تقـول الست الكبيرة عسى كبرت عمامتك ما تهز نفسك انت وتحطها معاه ، والا انت بابا كبير » .

وكان لحوار هذه السيدة فعل السحر في تخفيف حدة التوتر العصبي لدى الجموع ، وكان عادل بارعا في محاورتها .

ـ « ما هو لو انا هزيت نفسي زي ما بتقولي معناه ان العمودين اللي انتي شايفاهم فوق ظهري ينزلوا على الارض وينزل العالي على الواطي ونخرج الشابة وافضل انا وانت نندفن واروح انا شهيد شبابك » .

ـ « لا لا الهي يحفظك لشبابك هات يا واد هات النقالة »،انا هنا يا كابتن عادل ، ايه دا ، انت بتنزف ونازل رغي مع الست العجوزة » .

ـ « الزم حدودك يا ولد الناس ، بلا عجوزة عسى عجزت حيلتك خد امسك البنت من عندك ارفع يدها وانا هنا من رجلها واتوكل على الله على بره ، وانا وراكم وحسابنا مع بعض ان ما اشتكيتكم على السعودي .

ـ « احنا خارجين يا كابتن عادل لحـد ما اوصلهـم وراجـع لك ، شد حيلك .»

ـ « الله معانا بس خد بالك من حماتك اللي معاك .

وسمع صوت عادل من داخل ظلمات الهدميات

-اللهم لك الحمد والشكر ، اللهم تمم فضلك باحسانك .

ومضت لحظات ارتفع بعدها صوت الرائد مصطفى وهو قائد هذه العملية .

ـ « الحمد لله كله تمام يا فندم ، فرقة طوارىء سوف تحيط وترابط بالمكان ، الرائد عادل في حالة جيدة ونقلناه . فورا مع بقية المصابين الى المستشفى اى تعليمات يا فندم » .

وبشعور الأب والأخ والمواطن ، تناول راعي الحفل جهاز الاتصال وبصوت متهدج قال : بارك الله فيكم .. تحياتي وتحيات الشعب كله لكم وللكابتـن عادل شخصيا وستكلف هيئة او لجنة خاصة لزيارة الرائد عادل بالمستشفى اذا

سمحت ظروفه الصحية بذلك ، وسيقام حفل تسليمه نوط الجدارة بالمستشفى اذا أذنت ادارة المستشفى بذلك » .

ودوى تصفيق عال من جمهرة الحضور ، فقد شعر كل فرد ان هذه الكلمات كانت تكريما لكل عامل وكل قائم بواجبه . ومضت ثلاثة ايام قبل ان تسمح ظروف عادل الصحية بزيارته ، اما زميلتاه في الحادث .. العجوز والصغيرة فقد غادرتا المستشفى سليمتين ، ونظمت ادارة المستشفى حفلا بسيطا اشترك فيه الفنيون والاداريون والممرضات والمرضى وكان حفلا شعبيا متواضعا ، او هو كان حفلا عائليا فقد كان الجميع يجدون في عادل الأخ الشقيق ، وقام بعض المرضى ، والمريضات بتقديم مقطوعات غنائية تصاحبها موسيقى كان قد احضرها بعض المرضى والممرضات ممن لهم هوايات فنية ، والقيت منولوجات واسكتشات كوميدية .

وكانت المفاجأة ان من بين الحضور بعض كبار المسؤولين في الدفاع المدني الذين اعربوا ان هذا التكريم انما هو تكريم لهم شخصيا ايضا ومفاجأة اخرى حين تقدم رجل مهيب وقور بادي الصحة والنشاط رغم مظاهر الشيب التي تجلل رأسه ، كان ذلك هو الفريق ـ متقاعد ـ حمود العبدالله ، من رجال القوات المسلحة ، وتقدم الرجل الى حيث نجم الحفلة عادل وقبله بشعور الأب قائلا : انا يا كابتن عادل جاي هنا اشكرك واعاتبك ، اشكرك شكرا من اعماق القلب تعجز الكلمات عن الوفاء بمضمون هذا الشكر واعاتبك عتاب شديدا لدرجة القتل .

وتقبل عادل الشكر بخجل ولم يستطع مد يمينه للمصافحة حيث كانت ذراعه كلها معلقة على عنقه لاصابته ومد يسراه معتذرا وساد الجميع صمت في انتظار ما وراء هذه المفاجأة .

ـ بس ايه اللي عملته انا يا فندم علشان استحق الشكر دا كله ، والعتاب دا كله » .

ـ« شوف يا عادل يا ابني»قالها بنبرة حنان ثم التفت الى جمهرة الموجودين ، «اما الشكر اللي تعجز الكلمات عن مضمونه فلأنك انقذت وحيدتي بنتي هويدا اغلى حاجة عندي في الوجود ، هي اللي كانت معاك تحت الانهيار كانت راحت تزور صاحبتها وزميلتها ، وكأن قدرها كان في انتظارها ، زميلتها كانت متغيبة واهلها عن البيت وعند عودتها حصل اللي حصل » .

ـ « طيب دا بخصوص الشكر ، ولو انني ما عملت غير واجبي طال عمرك » .

قالها عادل بكل البساطة ، وكل الوضوح «انما العتاب على ايه ؟.. دا العتاب اللي لدرجة القتل !..»

وتنهد الفريق حمود مع ابتسامة عريضة تصحبها ضحكة من القلب .

-العتاب لأنك كمان انقذت حماتي ، ما هي الست اللي كانت معاها واللي بتقول عليها العجوز كانت حماتي ، يعني بالله عليك تتوقع إيه مني او من اى زوج لما تنقذ حماتي وأسأل المتزوجين ؟؟

وضج المكان بالضحك والفرح وصعد احد المرضى وكان ذراعه واحدى قدميه في الجبس صعد الى المنصة التي اعدت كمسرح وكان خفيف الدم والظل ، والقي منولوجا عن الحموات:يا منقذ حماتي ياليتك سبتها

يا منقذ حماتي ياليتك سبتها ..

كانت راحت شهيدة وكنت انا كسبتها ..

اشهدوا يا ناس على ظلم الناس ..

شوفوا فعايل حماتي حطتني في الاجباس ..

وضج المكان مرة اخرى بالضحك والتصفيق والمرح ، وهنا صعد الفريق حمود الى المنصة مشيرا وطالبا الهدوء ليستطرد قائلا : وجزاء لفعلتك هذه في انقاذ حماتي قررنا هي وأنا ان نرزأك بها وتقيم معاك اقامة دائمة علشان تعذرني وتدوق او تجني ما فعلت يداك والشاطر يفهمها .»

وهنا ارتفعت غطريفة طويلة اطلقتها بعض ممرضات المستشفى وانتهى الحفل بعد ان استمرت فقراته بعض الوقت ، واتجهت بعد ذلك الى مدير المستشفى اسأله عن موعد الاذن لعادل بالخروج من المستشفى فأجاب : ان غدا سيكون الخروج حيث حفل المساء كان حفل وداع وتقدير .

ومضت الايام تباعا ، لم يكن عادل يباشر عمله حيث كان يتمتع باجازة مرضية ، وفي خلال هذه الفترة كان كثير من المواطنين والعائلات التي عرفت عن طريق التلفزيون بالمشاهدة ـ عن احداث الانهيار والحريق كانوا يترددون على منزل عادل ، وكانت عفاف اكثر شيء سعادة بهذه الزيارات ممن تعرف ومن لا تعرف وكان تشارك ابنها بريق الشهرة ، وكان اكثر الزيارات ترددا من جانب الفريق حمود وابنته وحماته ، وشمت رائحة مفاجأة سارة ، وكانت خاتمة المطاف حفل زفاف الرائد عادل محمود على الانسة هويدا حمود ، وكان حفلا شاركت فيه الجموع بدون دعوة ، فقد صدق حس الجماهير فأرادت ان تعبر عن شكرها بمشاركة عادل في افراحه لقاء ما شاركها في اتراحها .